





العقبة مدينة الثقافة الأردنية 2016

منشورات العقبة مدينة الثقافة الأردنية 2016
دراسات

عبدالله أحمد عيال عوّاد

الصّورة الفنيَّة في شعر قيس بن الخطيم


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

إصدارات العقبة
مدينة الثقافة الأردنية لعام ٢٠١٦

الصّورة الفنّيّة
في شعر قيس بن الخطيم

- الصّورة الفنيَّة في شعر قيس بن الخطيم
- نقد
- عبد الله أحمد عيال عوّاد
- الطبعة: الأولى، ٢٠١٦م
- إصدارات العقبة مدينة الثقافة الأردنية لعام ٢٠١٦
- الناشر: وزارة الثقافة

شارع صبحي القطب المتفرّع من شارع وصفي التل، بناية رقم ٢٠
ص.ب: ٦١٤٠، عمان – الأردن
تلفون: ٥٦٩٦٢١٨ / ٥٦٩٩٠٥٤
فاكس: ٥٦٩٦٥٩٨
بريد الكتروني: info@culture.gov.jo

- التنسيق والإخراج الفني: محمد عدنان حسين
- الطباعة: مطبعة السفير / تلفون: ٠٦-٤٦٥٧٠١٥، تلفاكس: ٠٦-٤٦٥٧٠٥٢
- رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢٠١٦ / ٦ / ٢٥١٣)
- ردمك: (٩٧٨ - ٩٩٥٧ - ٩٤ - ٢٢٣ - ٦)



الصّورة الفنّيّة
في شعر قيس بن الخطيم

عبد الله أحمد عيال عوّاد

وزارة الثقافة الأردنية

٢٠١٦



المحتويات

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين، محمّد بن عبد الله، هادي الناس ومخرجهم من الظلمات إلى النّور، وبعد:

تناولت هذه الدّراسة شعر أحد فحول الجاهليّة هو قيس بن الخطيم، ووسمت بـ «الصّورة الفنّيّة في شعر قيس بن الخطيم».

وتنقسم الدّراسة إلى تمهيد وأربعة فصول، توقّف التمهيد على نسب الشّاعر، وقصّته في ثأره من قتلة أبيه وجدّه، وكشفت المصادر التي تناولته بالدّراسة عن شاعريّته وفروسيّته، فكان مقدامًا في المعارك، واجه خصومه بالسّيف واللسان، وكشفت المصادر عن منزلته ومكانته الشّعريّة فعدّه ابن سلّام في كتابه طبقات فحول الشعراء أحد فحول طبقة شعراء القرى العربيّة.

وانقسم الفصل الأوّل إلى شقين: بحث الشّقّ الأوّل مفهوم الصّورة لغة واصطلاحًا، وأورد آراء النقّاد القدماء والمحدثين في تعريفهم لمفهوم الصّورة، التي بينت الدّراسة أنّها محور العمليّة الشّعريّة. وفي الشّقّ الثّاني تناولت أنماط الصّورة عند قيس بن الخطيم بالدّرس والتّحليل، فكان شعره غنيًا بالصّور البصريّة وما يندرج تحتها من صور حركيّة مبنيّة على وقع الحبّ والغزل من جانب، ووقع المعارك وحركة الخيل وتقطيع الأشجار من جانب آخر بصور سمعيّة، ولونيّة، وشميّة، وذوقيّة.

أمّا الفصل الثّاني فقد بحث في مصادر الصّورة في شعر قيس بن الخطيم، وتوصّل إلى أن الإنسان من أهمّ هذه المصادر، وحياته اليوميّة أغنت شعره بالصّور الجميلة، وأمّا الطّبيعة فقد أمدّته بصور رائعة من خلال توظيف عناصرها المختلفة، من أزهار وأشجار وحيوانات ومظاهر كونيّة كالشّمس بشروقها وغروبها، وظهرت ثقافته كمنبع من المنابع التي أغنت شعره بالصّور.

وكانت الموضوعات الشّعريّة من حديث الفصل الثالث، التي كان موضوع الفخر أغناها في شعره وما فيه من صور حربيّة، صوّرت الأيّام والوقائع بين الأوس والخزرج، ومن عالم المرأة أبدع الشّاعر في الكشف عن جوانب محبّبة في الأنثى، كما طرق الشّاعر المديح الذي لم يكن يقصد منه التكسّب أو السّلطة، وكان هجاؤه لاذعًا في أعدائه جعلهم يحنقون عليه، كما توقّف الشّاعر على الحكمة التي برع في صياغة صورها.

وجاء الفصل الرّابع ليبيّن ما في شعره من صور بيانيّة وبديعيّة، فتوقّف على التّشبيه والكناية والاستعارة من فنون بيانيّة، ومن المحسنات البديعيّة الطّباق والجناس، واستطاع الشّاعر أن ينمّق صوره بفطرة العربيّ الذي عاش في عصر ما قبل الإسلام، فكانت صوره واضحة لا تعقيد فيها وكلّ ما تحتاجه معرفة شرح الألفاظ التي أبعدنا عنها طول العهد، وهي من الصّعوبات التي واجهتني في هذه الدراسة وختمت الفصل الرابع بقراءة لقصيدة «أتعرف رسمًا كاطّراد المذاهب». وانتهت الدّراسة بخاتمة بيّنت فيها أهمّ ما جاء في هذه الدراسة.

التّمهيد

قراءة في حياة الشّاعر

شابٌّ مقرون الحاجبين أدعج[1] العينين أحمر الشّفتين برّاق الثّنايا كأنّ بينهما برقًا، ما رأته حليلة رجل قطّ إلّا ذهب عقلها[2]. وهو حسن الوجه وأنّه ممّن يتعمّمون مخافة النّساء على أنفسهم من جمالهم[3].فهو بالغ التّأثير على النّساء[4].

هو الشّاعر قيس بن الخطيم بن عديّ بن عمرو بن سواد بن ظفر[5][6]. والخطيم بالخاء المعجمة [7] لخطمة في أنف ثابت بن عديّ والد قيس. وقيس شاعر من شعراء

---

(١) أدعج: من دعج ويعني شدّة سواد العين مع سعتها. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم(ت هـ). لسان العرب ج٢، تحقيق: أحمد فارس. دار صادر، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٣٠٠ هـ، ص٢٧١. مادة دعج .

(٢) الأصفهانيّ، أبو الفرج، كتاب الأغاني، مركز تحقيق التراث، ج٣، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ١٩٩٢م، ج٣، ص ٩.

(٣) ابن الخطيم، قيس، الدّيوان، تحقيق ناصر الدّين الأسد، دار صادر، بيروت، الطّبعة الثّانية ١٩٦٧ م، ص ٩ .

(٤) الجبوريّ، كامل، معجم الشّعراء في معجم البلدان، مكتبة لبنان ناشرون، ص ٥٧٣.

(٥) ابن حزم، علي بن محمّد، جمهرة أنساب العرب، راجع النسخة وضبط أعلامها لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ج ٢، ص٢٤٢.

(٦) الأصفهانيّ، كتاب الأغاني، ج٣، ص ١١.

(٧) الصّفدي، صلاح الدّين، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التّراث، بيروت ٢٠٠٠ م، ص ٦٥٤.

المدينة من بني ظفر من الأوس[١]. وأمّه قريبة بنت قيس القريح بن أميّة بن سنان بن كعب بن تميم بن سلمة[٢]. وله أختان ليلى وهي التي وهبت نفسها للنّبيّ صلى الله عليه وسلم وعرضت عليه نفسها ليتزوّجها[٣]، ولبنى. أمّا زوجته فهي حوّاء بنت يزيد بن سنان ابن كريز بن زعواء الأنصاريّة[٤]. وولدت له يزيد ويكنى به، وقد شهد وأخوه ثابت مع النبي صلى الله عليه وسلّم الغزوات. ومات يزيد أيّام معاوية[٥]. وقد عاش قيس بن الخطيم يتيمًا؛ فقد قُتل أبوه وهو صغير، قتله رجل من عبد القيس ممّن يسكن هجر، وأمّا جدّه عديّ بن عمرو فقتله رجل من بني عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة يقال له مالك؛ وكان قيس يوم قتل أبوه صبيًّا صغيرًا، وقتل الخطيم قبل أن يثأر بأبيه عديّ[٦].

لقد نشأ قيس بن الخطيم أيّدًا شديد الساعدين، وكان قوي الشكيمة يمتلئ حيويّةً ونشاطًا، ونازع في أحد الأيّام فتًى من بني قومه، ولمّا آلت إليه الغلبة لم يجد ذلك الفتى من قوّة وعزيمة إلّا أن يعيّره بمقتل أبيه وجده، قائلًا له: «والله لو جعلت شدّة ساعديك على قاتل أبيك وجدّك لكان خيرًا لك من أن تخرجها عليّ»[٧]. وكان لهذه الكلمات وقع السّهام عليه التي أصابت منه مقتلًا، متسائلًا في نفسه: ولمن القبران الموجودان على باب الدار ؟_ لم يكن يعلم قيس بن الخطيم أنّ أمّه عمدت إلى كومة تراب

---

(١) ابن الخطيم، قيس، الدّيوان، ص ١١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢.

(٣) ابن حزم، علي بن محمّد، جمهرة أنساب العرب، ج ٢، ص٢٤٢. وانظر: ابن الخطيم، قيس، الدّيوان، ص ١٤ -١٥.

(٤) الأصفهانيّ، كتاب الأغاني، ج٣، ص ١٠. وانظر: ابن الخطيم، قيس، الدّيوان، ص١٣.

(٥) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ج ٢، ص٢٤٢. وانظر: ابن الخطيم، قيس، الدّيوان، ص ١٥ - ١٦.

(٦) الأصفهانيّ، كتاب الأغاني، ج٣، ص٣.

(٧) المرجع نفسه، ج٣، ص٤.

وحجارة لتوهم ابنها أنّ هذين قبرا أبيه وجدّه، خشيةً عليه من أن يطلب ثأرهما[1]_.
وسأل قيس بن الخطيم الفتى: ومن قاتل أبي وجدي؟. قال الفتى: سل أمّك تخبرك.

ورجع قيس إلى أمّه يسألها عن قاتل أبيه وجدّه وحاولت أن تثبت أنّ موتهما طبيعيًّا إلّا أنّه هدّدها بأنّه سوف يقتل نفسه إن لم تخبره؛ حيث تحامل على السّيف بعد أن جعل قائمه على الأرض وذبّابه بين ثدييه، واضطرّت أمّه أن تخبره بالقتلة.« فقال: والله لا أنتهي حتّى أقتل قاتل أبي وجدّي، فقالت: إنّ مالكًا قاتل جدّك من قوم خداش بن زهير، ولأبيك عند خداش نعمة هو لها شاكر، فأتِهِ فاستشره في أمرك واستعنه يعنك[2].

ويبدو من إصرار قيس بن الخطيم على الثأر أنه يؤمن بعقيدة الجاهليّين في الثأر كالهامة والصّدى[3]. وعندما همّ بالخروج إلى ثأره عمد إلى ناضحه[4] وحمّل عليه غرارتين من تمر، ونادى في بني قومه من يتكفّل برعاية أمّه وينفق عليها من حائط (بستان) له ويأخذه له إن مات قيس، أمّا إذا تحقّق لقيس ثأره وعاد فبستانه راجع إليه، فتبنى ذلك الأمر أحد بني قومه. وضرب قيس - بعد أن اطمأنّ إلى أمر أمّه- الأرض باحثًا عن خداش بن زهير، حتّى وجد منزله وطلب من زوج خداش طعامًا، فأحضرت قباعًا فيه تمر، فأخذ تمرةً أكل شقّها وردّ الشّقّ الباقي، وغادر لقضاء بعض حاجاته. وعندما رجع خداش إلى منزله أخبرته زوجته بقصّة قيس، وقال: هذا رجل متحرّم.

---

(١) المرجع نفسه، ج٣، ص٣.
(٢) الأصفهانيّ، كتاب الأغاني، ص ٤ .
(٣) «هو طير كان يعتقد العرب أنه يخرج من رأس القتيل يصيح ويزق يطلب الثأر، فلا يهدأ ولا يسكن ولا تطمئن الرّوح حتى تُسقَى من دم القاتل». أبو سويلم، أنور، المطر في الشّعر الجاهليّ، دار عمّار، عمّان، الطّبعة الأولى ١٩٨٧م، ص ٧٨.
(٤) النّاضح : البعير يستقى عليه الماء.

وعندما عاد قيس بن الخطيم تعرّف عليه خداش، ورحّب به واعدًا إيّاه مساندته في ثأره من قتلة أبيه وجدّه[1]. وقال له: «إنّ هذا الأمر ما زلت أتوقّعه منك منذ حين. فأمّا قاتل جدّك فهو ابن عمّ لي وأنا أعينك عليه، فإذا اجتمعنا في نادينا جلست إلى جنبه وتحدّثت معه، فإذا ضربت فخذه فثب إليه فاقتله»[2]. واستلّ قيس سيفه وأردى مالكًا قاتل جدّه قتيلًا، وعندما همّ قوم مالك لقتل قيس بن الخطيم صدّهم خداش وأخبرهم بقصّة ثأره[3]. حتّى امتنعوا عنه.

وتوجّه قيس بن الخطيم برفقة خداش بن زهير إلى هجر، مأوى مغتال أبيه، وعندما وصلا، أشار عليه خداش أن ينطلق حتّى يسأل عن قاتل أبيه، فإذا دُلّ عليه قال له: إنّ لصًّا من لصوص قومك عارضني فأخذ متاعًا لي، فسألتُ مَنْ سيّدُ قومه فدُللتُ عليك، فانطلق معي حتّى تأخذ متاعي منه، فإن اتّبعك وحده فستنال ما تريد منه، وإن أخرج معه غيره فاضحك، فإن سألك ممّ ضحكت فقل: «إنّ الشّريف عندنا لا يصنع كما صنعت إذا دُعي إلى اللصّ من قومه، إنّما يخرج وحده بسوطه دون سيفه، فإذا رآه اللصّ أعطى كلّ شيء أخذ هيبةً له، فإن أمر أصحابه بالرّجوع فسبيل ذلك، وإن أبى إلّا أن يمضوا معه فأتني به، فإنّي أرجو أن تقتله وتقتل أصحابه». ونزل خداش تحت ظلّ شجرة، وخرج قيس حتّى أتى العبديّ فقال له ما أمره خداش فأحفظه، ولمّا خلا قيس بقاتل أبيه طعنه بحربته، وتمّ له ثأره. وعاد إلى قومه[4]. وأشار قيس بن الخطيم إلى إخلاص خداش بن

(١) الأصفهانيّ، كتاب الأغاني، ج٣، ص ٤ – ٥.
(٢) المرجع نفسه، ص ٥.
(٣) المرجع نفسه، ص٥.
(٤) الأصفهانيّ، كتاب الأغاني، ص٥ – ٦.

زهير ووفائه للنعمة التي تبدو كبيرة من قبل الخطيم عليه، ونطق قيس بذلك شعرًا مفتخرًا بنيله لثأره، وقال[1]:

ثـأرْتُ عَـدِيًا والخَطِـيمَ فَلَـمْ أَضِـعْ

وِلايَـةَ أشْـياءٍ جُعِـلْتُ إزاءهـا[2]

ضَـرَبْتُ بِـذِي الـزِّرَّيْن رِبْـقةَ مالـكٍ

فأُبْـتُ بِـنَفْسٍ قَـد أصَـبْتُ شِـفاءها[3]

وسـامحني فيهـا ابـنُ عمـرِو بـنِ عَـامِرٍ

خِـداشٌ فـأدَّى نِعْمَـةً وأفاءهـا[4]

إنّ قصّة ثأر قيس بن الخطيم كانت الصّفحة الأولى من حياته وفنّه الشّعري الذي وصل إلينا. فهو كغيره من شعراء عصره الذين طمست أخبارهم ونشأتهم الأولى وحتى تاريخ ولادة كلّ شاعر[5].

وينتمي قيس بن الخطيم إلى الأوس التي سكنت يثرب[6]. وعلى الرغم من أنّ الأوس والخزرج سكنوا آطام المدينة إلّا أنّ حياتهم لم تختلف كثيرًا عن حياة البدو في

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٤٣ – ٤٥.

(٢) ثأرت عديًّا والخطيم: طلبت قاتليهما، جعلت إزاءها: أي جعلت القيّم بها.

(٣) ذو الزّرّين: سيف قيس، ربقة مالك: عنقه.

(٤) سامحني: تابعني، أفاءها: أرجعها، فقد كان للخطيم عند خداش نعمة، وعندما جاء قيس بن الخطيم إلى خداش ليعينه على ثأره أعانه من باب ردّ الجميل.

(٥) حسن محمّد، جليل، قيس بن الخطيم حياته وشعره، دار دجلة، عمّان، ص ٣٧.

(٦) ضيف، شوقي، العصر الجاهليّ، الطّبعة السّابعة، دار المعارف بمصر، ص٥٣. حسن محمّد، جليل، قيس بن الخطيم حياته وشعره، ص ١٣-٢٢.

الخيام، ومن دلائل ذلك أنّهم كانوا يتحاربون، ويعتقد بأنّ لليهود دورًا كبيرًا في إشعال هذه المعارك، وللأوس والخزرج أيّام ووقائع كثيرة شارك في بعضها قيس بن الخطيم، وقال فيها شعرًا، ومن هذه الأيّام: سمير، وحاطب ويوم السّرارة ويوم فارع ويوم الرّبيع ويوم البقيع ويوم معبس ومضرس ويوم الفجار ويوم بعاث[1].

ويذكر عمر فروخ في كتابه تاريخ الأدب العربيّ أنّ لقيس بن الخطيم وصفًا فيه صور بدويّة وصور حضريّة [2].

وقيس بن الخطيم من عائلة مرموقة وكريمة، وما انتظار خداش بن زهير له ومساندته في ثأره على بني عمّه إلّا دلالة على عظم نعمة الخطيم على خداش. وبالإضافة إلى جماله يتميّز قيس بن الخطيم بالشّجاعة والفروسيّة[3]. ومن ذلك« أن جلس رسول الله – ﷺ – في مجلس ليس فيه إلّا خزرجيّ ثم استنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم، يعني قوله:

أتعــرفُ رســمًا كــاطّرادِ المــذاهبِ

لَعَمْــرةَ وَحْشًــا غيــرَ موقِــف راكــبِ[4]

(١) انظر ضيف، شوقي، العصر الجاهليّ، ص٥٤. حسن محمد، جليل، قيس بن الخطيم، ص ٤٤ – ٥٥.

(٢) فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربيّ، الجزء الأوّل، الأدب القديم من مطلع الجاهليّة إلى سقوط الدّولة الأمويّة، دار العلم للملايين، ص ٢٠٣.

(٣) زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربيّة، الجزء الأول، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان ١٩٩٢م، ص ١٣٠. الذهبيّ، محمد بن أحمد، سير أعلام النّبلاء، مؤسّسة الرّسالة، ٢٠٠١م، الجزء ٢٦، ص٢٩٥.

(٤) اطّراد: تتابع، المذاهب: جلود كانت تُذْهَب، واحدها: مذهب، تُجعل فيها خطوط مذهبة بعضها في إثر بعض فكأنّها متتابعة، وحشًا: قفرًا.

فأنشدهم بعضهم إيّاها، فلمّا بلغ إلى قوله:

أُجالِــدُهم يــومَ الحدِيقـــة حاسِـــرًا

كـأنّ يـدي بالسّـيف مِخـراق لاعـبِ [١]

فالتفت إليهم رسول الله ﷺ فقال: هل كان كما ذكر؟. فشهد له ثابت بن قيس بن شمّاس، وقال له: «والذي بعثك بالحقّ يا رسول الله، لقد خرج إلينا يومَ سابع عُرْسه عليه غِلَالة ومِلْحَفة مورَّسة فجالدَنا كما ذكر»[٢].

وقيس بن الخطيم حافظ للسّرّ والأمانة، وفي ذلك يقول:[٣]

إذَا جَـــاوَزَ الإِثْـنَيْــنِ سِـــرٌّ فإنـــهُ

بِنَشْـــرٍ وتَكْثيـــرِ الحَـــدِيثِ قَمِـــينُ[٤]

وإنْ ضَـــيّعَ الإخْـــوانُ سِـــرًّا فـــإنّني

كَتــــومٌ لأسْـــرَارِ العَشِـــيرِ أمـــينُ

يَكُـــونُ لـــهُ عِنْــدِي إذا مـــا ضَـــمِنْتُهُ

مَقَـــرٌّ بِسَـــوْداء الـفُـــؤادِ كَـــنِينُ[٥]

---

(١) الحديقة: اسم موقع، المخراق: منديل أو غيره يلوى فيضرب به، أو يلف فيفزع به، وهو لعبة يلعب بها الصبيان.

(٢) الأصفهانيّ، كتاب الأغاني، ج٣، ص ٧.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٦٢ – ١٦٤.

(٤) قمين: أي حريّ خليق.

(٥) سوداء الفؤاد وسويداؤه: علقة سوداء تكون في جوفه، كنين: مكنون.

وفي موضع آخر يقول[1]:

يــا عَمْــرُو إنْ تُسْــدِ الأمانــةَ بَيْنَنــا

فأنــا الّــذي، إنْ خُنْتُهــا، يَرْعَاهــا

ومن كرم طباع قيس بن الخطيم وحسنها «أن كانت عنده حوّاء بنت يزيد بن سنان بن كريز، فأسلمت، وكانت تكتم قيس بن الخطيم إسلامها، فلمّا قدم قيس مكّة عرض عليه رسول الله صلّى الله وسلّم الإسلام، فاستنظره قيس حتّى يقدم رسول الله ﷺ المدينة، فسأله رسول الله - ﷺ - أن يجتنب زوجته حوّاء بنت يزيد، وأوصاه بها خيرًا، وقال له: إنّها قد أسلمت؛ ففعل قيس وحفظ وصيّة رسول الله ﷺ؛ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: وفّى الأديعج»[2]. ويبدو من ذلك أنّ قيس بن الخطيم لم يكن يعادي الإسلام على الرغم من أنّه كغيره من الأوسيين كان وثنيًّا.

وممّا أوردت المصادر عن خبر مقتله ما جاء في كتاب الأغاني: «ولمّا هدأت حرب الأوس والخزرج، تذكّرت الخزرج قيس بن الخطيم ونكايته فيهم، فتآمروا وتواعدوا قتله، فخرج عشيّةً من منزله في ملاءتين يريد مالًا له بالشّوط حتّى مرّ بأطم بني الحارثة، فرمي من الأطم ثلاثة أسهم، فوقع أحدها في صدره، فصاح صيحةً سمعه رهطه، فجاءوا فحملوه إلى منزله، فلم يروا له كفئًا إلّا أبا صعصعة يزيد بن عوف بن مدرك النّجّاريّ، فاندسّ إليه رجل حتّى اغتاله في منزله، فضرب عنقه واشتمل على رأسه، فأتى به قيسًا

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢١٥.

(٢) الأصفهانيّ، كتاب الأغاني، ج٣، ص ١٠. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن عليّ، الإصابة في تمييز الصّحابة، دار الجيل - بيروت، الطّبعة الأولى، تحقيق علي محمّد البجّاوي، الجزء السّابع، ص ٥٨٩. الجبوري، كامل، معجم الشّعراء في معجم البلدان، الجزء الأوّل، ص ٣٢٢.

وهو بآخر رمق، فألقاه بين يديه وقال: يا قيس أدركت بثأرك ... فلم يلبث قيس بعد ذلك أن مات»[1]. وكان ذلك قبل الهجرة بسنتين نحو عام ٦٢٠م[2].

منزلته

إنّ فارسًا شجاعًا فتح الثأر قريحته الشّعريّة بالإضافة إلى ما عرف عنه من صفات حسنة وطباع جميلة وثقافة متنوعة، لابدّ أن يتفوّه بشعر يجعل له مكانة مرموقة بين الشعراء ويعجب به النّقّاد، «فقد شهد له النابغة الذبيانيّ عندما أنشده:

أتعــرفُ رســمًا كــاطّرادِ المــذاهبِ

لَعَمْــرةَ وَحْشًــا غيــرَ موقِــف راكــبِ

قال له النابغة: أنت أشعر النّاس يا ابن أخي»[3]. ومهاجاة قيس بن الخطيم لحسّان بن ثابت الشّاعر الكبير ومناقضته له تظهر مدى قدراته الشّعريّة[4]. وهو من الشّعراء الفحول، وجعله ابن سلّام في طبقة شعراء القرى العربيّة[5]. وقال فيه: «قيس بن الخطيم شاعر، فمن النّاس من يفضّله على حسّان شعرًا ولا أقول ذلك»[6].

(١) الأصفهانيّ، كتاب الأغاني، الجزء الثّالث، ص ١١.
(٢) الزركليّ، خير الدّين، الأعلام، الجزء الخامس، ص ٢٠٥.
(٣) الأصفهاني، كتاب الأغاني، الجزء الثّالث، ص ٩.
(٤) المرجع نفسه، ص ١١. وانظر: حسن محمّد، جليل، قيس بن الخطيم، ص ١٠٢ – ١١٢.
(٥) الجمحيّ، ابن سلّام، طبقات فحول الشّعراء، السّفر الأوّل، قرأه وشرحه محمود محمّد شاكر، مطبعة المدنيّ – القاهرة، ص ٢١٥.
(٦) المصدر نفسه، ص ٢٢٨.

وعدّه الأعلم الشّنتمري ضمن أفضل اثني عشر شاعرًا[1]. وفي طيف الخيال فقيس بن الخطيم أوّل من أبدع الطّروق وفتح للشّعراء القول في طروق الخيال، بأحسن عبارة وأحلى إشارة[2].

وفي ذلك يقول[3]:

أنّــى سَــرَبْتِ وكنــتِ غيــرَ سَــرُوبِ

وتُقــرِّبُ الأحــلامُ غيــرَ قَرِيــبِ[4]

مــا تَمْنَعِــي يَقْظَــى فقــد تُؤْتِينــهُ

في النّــوْمِ غيــرَ مُصَــرَّدٍ مَحْسُــوبِ[5]

وعلّق الآمدي على هذه الأبيات، فقال: «وما أظنّ أحدًا سبق قيسًا إلى هذا المعنى في وصف الخيال، وهو حسن جدًّا»[6].

ويرى عمر فرّوخ أنّ قيس بن الخطيم شاعر مكثر مجيد حسن الديباجة[7]. وفي مقدّمة الدّيوان أورد ناصر الدّين الأسد أهمّ الأقوال والآراء التي قيلت في شعر قيس بن

(١) الشّنتمري، يوسف الأعلم، مختار الشّعر الجاهليّ، دار الفكر الإسلامي الحديث، ص٢٣٢.
(٢) منصور، حمدي و أحمد زهير رحاحلة، ملامح الطّيف في الشّعر الجاهليّ، بحث منشور في مجلّة مجمع اللغة العربيّة الأردنيّ، العدد ٧٦ ، السّنة الثّالثة والثلاثون، كانون الثّاني – حزيران ٢٠٠٩م، ص ١١٠–١١١.
(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٥٥ – ٥٦.
(٤) غير سروب: غير مبعدة.
(٥) مصرّد: مقلّل، محسوب: متوقّع منتظر.
(٦) الآمدي، الحسن بن بشر، الموازنة، تحقيق محمّد محي الدّين عبدالحميد، بيروت ١٩٤٤م، ص ٣٤٢.
(٧) فروخ ، عمر، تاريخ الأدب العربيّ، ص ٢٠٣.

الخطيم[1]. ولسلامة لغته الشّعريّة، فقد استشهد بشعر قيس بن الخطيم اللغويّون والنّحويّون والجغرافيّون وغيرهم[2].

وبهذا أكون قد أوردت أهمّ محطّات حياة قيس بن الخطيم، كما جاءت في بعض المصادر، وبيّنت منزلته الشّعريّة الرّفيعة، وستكون الفصول اللاحقة مخصّصة لدراسة الصّورة الفنيّة في شعره الذي يستحقّ أن يقرأ ويحلّل.

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٩ – ١٠. وانظر: الأصفهانيّ، كتاب الأغاني، ج٣، ص١٣. وانظر: حسن محمد، جليل، قيس بن الخطيم حياته وشعره، ص ٦١ – ٦٧.

(٢) حسن محمّد، جليل ، قيس بن الخطيم حياته وشعره ، ص ١٦٧ – ١٧١.

الفصل الأول

الصورة وأنماطها

لم يكن الشّعر العربيّ مجرّد وقوفٍ على الأطلال أو وصفٍ للظّعائن والحمر الوحشيّة فحسب، بل كان يمثّل حياة الشّاعر وخاصّة في عصر ما قبل الإسلام المعروف بالعصر الجاهليّ، ففي الشّعر حياته وموته ونومه وأرقه وفرحه وترحه وحبّه وكرهه وبخله وسِلْمِهِ وسيفه، وقد وقف الشّاعر مدافعًا عن نفسه وقبيلته، ووقف في الأسواق: عكاظ على سبيل المثال خاضعا للمفاضلة بينه وبين غيره من الشّعراء، وأيّ معيار اتّخذه النّقّاد لهذه المسابقة، لا شكّ في أنّ الصّورة الفنيّة هي المحور الأساسيّ الذي جعل النابغة الذبيانيّ يقول لفلان أو فلان أنت أشعر النّاس، وإن كان النقد ذوقيًا في ذلك العصر.

١,١ مفهوم الصّورة

الصّورة بالضّم (ضم الصاد): الشّكل والهيئة والحقيقة والصّفة[١]. ومن أسماء الله تعالى: المصّور وهو الذي صوّر جميع الموجودات ورتّبها فأعطى كلّ شيء منها صورةً خاصةً وهيئةً مفردةً يتميّز بها على اختلافها وكثرتها. ويقال: صوّر له الشّيء: تخيّله وبدا له[٢].

وفي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾[٣]. وصوّرناكم في الآية بعد الخلق أي صوّره بشرًا سويًا[٤].

ويفيد التّصوير هنا معنى التّزيين والتّجميل[٥]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٦]. ويصوّركم أي يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى وحسن وقبيح وشقيّ وسعيد[٧]. وقوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ

---

(١) الزّبيديّ، مرتضى، تاج العروس، دار الكتب العلمّية، بيروت، ٢٠٠٧م، ١٢: ٣٥٨. مادّة صور.

(٢) ابن منظور، جمال الدّين محمّد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر بيروت، ٢٠٠٣م ، ٨: ٣٠٤، مادّة صور.

(٣) الأعراف (١١).

(٤) الدّمشقيّ، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، قدّم له عبدالقادر الأرناؤوط، دار السّلام –الرّياض، الطّبعة الثّانيّة ١٩٩٨م، المجلّد الثّاني، ص ٢٧٢.

(٥) البصير، كامل حسن، بناء الصّورة الفنيّة في البيان العربيّ موازنة وتطبيق، مطبعة المجمع العلميّ العراقيّ ١٩٨٧م، ص٢٢.

(٦) آل عمران (٦).

(٧) الدّمشقيّ، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، قدّم له عبدالقادر الأرناؤوط، دار السّلام – الرّياض، الطّبعة الثّانيّة ١٩٩٨م، المجلّد الأوّل، ص ٤٥٩.

اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ)[١]. وصوّركم فأحسن صوركم أيّ فخلقكم في أحسن الأشكال ومنحكم أكمل الصّور في أحسن تقويم[٢].

إنّ مادّة (صور) بشتّى صيغها قد رفدت المعجم العربيّ بمدلول يتّسع في طبيعته ووسيلته وموضوعه وغايته كلّ الاتّساع؛ وصارت مادّة (صور) كما وردت في الآيات مبينةً لمصطلح الصّورة في الدّراسات البلاغيّة والنّقدية العربيّة الأصليّة نجم عنه في تأصّل وتفرّع ليؤدّي عن الهيئة والشّكل والصّفات والأمور ممّا يتعلّق بالموضوع الذي يتعدّاه التّصوير كائنًا كان أو فكرة[٣]. وقد تناول النّقّاد القدماء والمحدثون مصطلح الصّورة بالدّرس والتّحليل، وتعدّدت آراؤهم وتشعّبت في شتى العّصور المختلفة، «حتّى عُدّ مفهوم الصّورة من المفاهيم النّقديّة التي عانت اضطرابًا في التّحديد والتدّقيق»[٤]. ونبدأ بالجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) فهو من أوائل النّقّاد الّذين تحدّثوا عن أهميّة الصّورة، ومكانتها في الشّعر، يقول: «والمعاني مطروحة في الطّريق، يعرفها العجميّ والعربيّ، والقرويّ والبدويّ، وإنّما الشّأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحّة الطّبع، وجودة السّبك، فإنّما الشّعر صناعة وضرب من النّسيج وجنس من التّصوير»[٥].

(١) غافر (٦٤).

(٢) الدّمشقيّ، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، قدّم له عبدالقادر الأرناؤوط، دار السّلام – الرّياض، الطّبعة الثّانيّة ١٩٩٨م، المجلّد الرّابع، ص ١١١.

(٣) البصير، كامل حسن، بناء الصّورة الفنيّة في البيان العربيّ موازنة وتطبيق، ص ٢٤.

(٤) الياسين، إبراهيم منصور، شعر ابن درّاج القسطليّ، دراسة وتحليل، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك ١٩٩٧م، ص١٥١.

(٥) الجاحظ، أبو عثمان، الحيوان، تحقيق: عبدالسّلام هارون، دار إحياء التّراث العربيّ – بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٩٦٩ م، ص ١٣٢ – ١٣٣.

والحديث عن الصّورة الشّعريّة يبدو جليًّا في هذه العبارات، سواء كان المقصود بها التّشبيه أو الصّورة في المفهوم المعاصر. والشّعر عند الجاحظ في النهاية «جنس من التّصوير وإنه ليس التّصوير نفسه. وعليه فإنّه إذا كان قد شبّه الشّعر بالتّصوير لما حرّر خصائصه التّعبيريّة والموسيقيّة واللونيّة لم يشأ في الوقت نفسه أن يجعله تصويرًا محضًا، ذلك لأنّ التّصوير بحكم أدواته وموادّه ينزوي في مرمى حاسّة البصر ملتمسًا سبيله إلى نفس الرّائي ووجدانه وإحساسه، أمّا الشّعر فيتسلّل بخفّة عن طريق وسيلة اللغة الّتي تتألّف من الكلمات في ضوء قواعد من نظمها المميّز»[1].

وتبلغ الصّورة من الأثر إذا كانت بالأذهان، فتكون عندئذ أكثر تأثيرًا من رؤية الصّورة بالحواسّ. «فحين نرى الصّورة بحواسّنا يقلّ تأثيرها لأنّها تحدّ من قوّة الأشواق وتلطّفها، وحين تغيب عنّا، ونتبصّرها بأذهاننا فإنّها تخامر شعورنا وتتفاعل في وجداننا فيزداد تأثيرها، فتنعكس على كلامنا وحركاتنا بشتّى الإيحاءات المعبّرة عن اهتزاز الذبذبات الوجدانية التي نحسّها، ولا ندركها لأنّنا محجوبون بحواسّ البصر عن البصيرة في زحمة هذا الانفعال»[2].

ويعرّف قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) الشّعر بأنّه «قول موزون مقفّى يدلّ على معنى»[3]، وفي هذا إشارة إلى أنّ الشّعر صورة لا تتحقّق إلاّ بجانبيه: اللّفظيّ والمعنويّ، ويبدو أنّ مفهوم الصّورة عند قدامة لا يتجاوزه عند الجاحظ فهو كنسيج متّحدٍ من جميع

(١) البصير، كامل حسن، بناء الصّورة الفنيّة في البيان العربيّ موازنة وتطبيق، ص ٢٨ .

(٢) صادق، محمّد، خصوبة القصيدة الجاهليّة ومعانيها المتجدّدة دراسة وتحليل ونقد، دار إحياء الكتب العربيّة، الطّبعة الثّانية، ص ٢٦٠.

(٣) ابن جعفر، قدامة، نقد الشّعر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي – القاهرة، الطّبعة الثّالثة ١٩٦٣م. ص ١١.

أركانها لفظًا ومعنًى ووزنًا وقافيةً، ولكي يقرّب هذا الفهم فقد قرنه ببعض المهن كالتّجارة والصّياغة، فلا يعقل أن يتصور الصانع قطعة معينة من الأثاث كأجزاء متناثرة من العناصر التي تدخل في تكوينها، ولا يمكن تصوّر الحليّ الّتي يصنعها الصّائغ نثارًا من المعدن الّذي يدخل في تشكيلها[1]، يقول قدامة: «إنّ المعاني كلّها معرضة للشّاعر، وله أن يتكلّم منها فيما أحبّ وآثر من غير أن يحظر عليه معنًى يروم الكلام فيه، إذ كانت المعاني للشّعر بمنزلة المادّة الموضوعة، والشّعر فيه كالصّورة، كما يوجد في كلّ صناعة من أنّه لا بدّ فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصّورة منها، مثل الخشب للنّجارة، والفضّة للصّياغة» [2].

ولم يبتعد الجرجانيّ (ت ٤٧١ هـ) كثيرًا عن الجاحظ وقدامة بتشبيهه التّصوير بالصّناعة يقول: «ومعلوم أنّ سبيل الكلام سبيل التّصوير والصّياغة، وأنّ سبيل المعنى الذي يعبّر عنه الشّيء الّذي يقع التّصوير والصّوغ فيه كالفضّة والذّهب يصاغ منهما خاتم أو سوار»[3]، ويتحدّث الجرجانيّ عن الصّورة الفنيّة ومكوّناتها في الشّعر العربيّ: «واعلم أنّ قولنا: إنّما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الّذي نراه بأبصارنا، وكذلك كان الأمر في المصنوعات، فكأن تبيّن خاتم من خاتم وسوار من سوار بذلك، ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفرقًا، عبّرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا: للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك»[4] فعلى الشّعراء العناية بدقّة التّصوير الّتي بدونها يمكن أن يكونوا حكماء أو فلاسفة[5].

---

(١) ابن جعفر، قدامة، نقد الشّعر، ص ١٩.

(٢) ابن جعفر، قدامة، نقد الشّعر، ص ١٩.

(٣) الجرجانيّ، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمّد شاكر، مكتبة الخانجيّ – القاهرة ١٩٨٤، ص ١٧٥ – ١٧٦.

(٤) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، السّابق، ص ١٧٤.

(٥) الصّائغ، عبد الإله، الصّورة الفنيّة معيارًا نقديًا، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، العراق، الطّبعة الأولى ١٩٨٧، ص ١١٠.

أمّا ابن خلدون (٨٠٨ هـ) فهو على يقين بأنّ العرب فرسان الكلام وجهابذته، والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأوضحه، وهذا لا يعفي الشّاعر من تمثّل أساليب القدامى والمحدثين والتزوّد بالثّقافة الّتي تصقل موهبته، وعليه مهمّة إدهاش الآخرين، وإمتاعهم بالصّورة الّتي تتم عن نظراته للجمال فلا يقترب من تعابير السّوقة ولا يتشادق بالتّعبير الغريب[1]. وفي مقدّمته يقول ابن خلدون: « فالمعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكرة منها ما يشاء ويرضى، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصّناعة كما قلنا وهو القوالب للمعان، فكما أنّ الأواني الّتي يغرف بها الماء من البحر، منها آنية الذّهب والفضّة والصّدف والزّجاج والخزف، والماء واحد في نفسه، ومختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء، كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبارها تطبيقه على المقاصد، والمعاني واحدة في نفسها»[2].

ونجد من خلال الآراء التي تناولناها أنّ القدماء[3] عبّروا عن الصّورة بالعبارة وأحيانًا باللفظ، و بذلك تناولوا جزءًا من الصّورة في مفهوم المحدثين ليعبّروا عن الصّورة كلّها وأكثر حديثهم كان عن القضايا البلاغيّة. وبسبب هذا رأى بعض النّقّاد

(١) انظر: الصّائغ، الصّورة الفنيّة معيارًا نقديًا، ص ١٢٣.

(٢) ابن خلدون، عبد الرّحمن، المقدّمة، دار الكتّاب المصريّة، مؤسّسة شعبان للنّشر والتّوزيع، ص١١١١.

(٣) لمعرفة المزيد من آراء النّقّاد القدماء، انظر: الرباعيّ، عبد القادر، الصّورة الفنّيّة في النّقد الشّعريّ دراسة في النّظريّة والتّطبيق، مكتبة الكتاني، إربد، الأردنّ، الطّبعة الثّانية ١٩٩٥م، ص١٥ – ٦٨. الصّائغ، الصّورة الفنّيّة معيارًا نقديًا، ص ١٠٧ – ١٢٤. الصّغير، محمّد حسين، نظريّة النّقد العربيّ رؤية قرآنيّة معاصرة، دار المؤرّخ العربيّ، بيروت، لبنان، ص ١٢ – ١٦.

المحدثين، أنّ مفهوم الصّورة عند النّقّاد يقف عند حدود الصّورة البلاغيّة،[1] ويرى عبد الفتّاح نافع أنّ « الشّعراء فصلوا بين الشّكل والمضمون، بين الصّورة والمادّة، وحصروا مفهومهم للصّورة في الشّكل الخارجيّ وانهمكوا في تقديم أفكار وصور أكثر ممّا يتناسب مع الموضوع تارّة، وتارّة في تقديم تعابير لا تناسب الأفكار»[2]، واهتمّ النّقّاد في العصر الحديث بالصّورة وأخذوها بالتّحليل والمناقشة باحثين في جذورها، وتفاوتت آراؤهم فيها وتشعّبت، ومنهم من جعل قضيّة الصّورة أشدّ القضايا خطورة في النّقد الحديث، وإن اقتناص الحقيقة الشّعرية في الصّورة مطلب عسير عسر دراسة الإنسان ذاته[3].

ومن النّقّاد المحدثين الذين اهتموا بدراسة الصّورة الدّكتور ماهر حسن فهمي وذلك من خلال حديثه عن التّجربة الشّعرية، يقول: «التّجربة الشّعريّة هي عمليّة الإبداع في النّظم بدءًا من المثير الّذي أثار الشّاعر وجعله ينفعل، وما تلا ذلك من عمليات شعوريّة ولا شعوريّة في حناياه حتى صوّرت في قصيدة»[4]. والصّورة من عناصر التّجربة الشّعريّة عنده، ويعرّف الصّورة بأنّها «تجمع بين الشّكل والمضمون، تجمع بين الفكرة والرّسم الّذي يعبّر عن هذه الفكرة، فهي تجسيم لأمر معنوي»[5].

---

(١) البطل، عليّ، الصّورة الفنيّة في الشّعر العربيّ حتّى آخر القرن الثّاني الهجريّ، دار الأندلس، بيروت، الطّبعة الثّالثة ١٩٨٣ م، ص١٥.

(٢) نافع، عبد الفتّاح، الصّورة في شعر بشّار بن برد، دار الفكر للنّشر والتّوزيع، عمّان، ١٩٨٣م، ص ٩٣ .

(٣) عبد الرّحمن، نصرت، الصّورة الفنّيّة في الشّعر الجاهليّ في ضوء النّقد الحديث ، مكتبة الأقصى، عمّان، الأردن ١٩٨٢ م، ص٥.

(٤) فهمي، حسين، قضايا الأدب والنّقد رؤية عربيّة وقفة خليجيّة، دار الثّقافة، قطر، ص ٩.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٧ .

«والصّورة وحدة لا تنفصم، ذات طرفين: إطار ومادّة، ولا يتقوّم الجهد الأدبيّ إلّا بلحاظ طرفين، ولا يتمّ تفسيره إلّا بمواجهتهما معًا، وإلّا فالنّتاج الأدبيّ عمل جاف لا ينبض بالحسّ، ولا يتّسم بالحياة، والجفاف لا يكون أثراً صالحًا في مقياس فنيّ»(١).

ويسعى التّصوير الفنيّ عند عبد الإله الصّائغ: «إلى تقديم نسخة جزئيّة أو كليّة للواقع الحسّيّ أو الشّعوريّ كما تهيّأ للشّاعر وبأسلوب أدبيّ مؤثّر أمّا الصّورة الفنيّة أو الأدبيّة أو الشّعريّة فهي تشكّل جماليّ تستحضر فيه لغة إبداع الهيئة الحسّيّة أو الشّعوريّة للأجسام أو المعاني بصياغة جديدة تمليها قدرة الشّاعر وتجربته وفق تعادليّة فنيّة بين طرفي المجاز والحقيقة دون أن يستثير طرف بآخر، وتظلّ أنماطها المتعدّدة بتعدّد النّظر النّقديّ داخل حدود الحسّ والشّعور»(٢).

وربط الصّورة بالنّصّ يشكّل وحدة تعكس القانون الفنّيّ النّموذج بإنجازات متنوّعة، والنّموذج يعرض لعامل حيّ وخصب، وهو لبّ الشّعر، وعماده والفاعل فيه، لإنتاج العالم المتخيّل والغابر، المتواري خلف الملفوظ الظّاهر، وصولًا إلى أقصى حدود الإنجاز تجسيدًا، ووصفًا، وإيحاءً(٣). وتكمن فتنة الصّورة في إيحائها. فاليأس والأمل سيظلّان يتصارعان في دورة الزّمن على بساط واقع الحياة بما فيها من رطوبة ويبوسة، وإنّ الجوانب الجافّة والنّديّة وحدة متكاملة، وتشكّل وحدة هذه الحياة بكل مقوّماتها سواء في البادية أم في الحاضرة، وسواء في الجاهليّة أم في الحياة المعاصرة(٤). والصّورة

---

(١) الصّغير، نظريّة النّقد العربيّ رؤية قرآنيّة معاصرة، ص ٢٤ .

(٢) الصّائغ، الصّورة الفنيّة معيارًا نقديًا، ص ١٥٩.

(٣) مسكين، حسن، الخطاب الشّعريّ الجاهليّ رؤية جديدة، المركز الثّقافي العربيّ، ص ١٥– ١٨٨ .

(٤) صادق، محمّد، خصوبة القصيدة الجاهليّة ومعانيها المتجدّدة دراسة وتحليل ونقد، ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

فاتنة إذا صوّرت ما يدور بين العلاقات الإنسانيّة من تجارب ومصالح تؤدّي إلى تناقض مواقعها وتباين عواطفها من غدر ووفاء ومن رقّة وجفاء واختلاف النّزعات الّتي تعانيها، وتقاسي مرارتها، فتضع لها الحلول وتحمل أثقالها[١].

ويؤكّد عناد غزوان بأنّ للصّورة جذورًا تاريخيّة في النّقد العربيّ، وهي معيار أو مقياس نقديّ للمفاضلة بين شاعر وشاعر أو شعريّة وأخرى[٢]، «والصّورة تعني الوجه الجماليّ الحسّيّ للألفاظ والوجه الجماليّ الذّهنيّ للمعاني»[٣].

إنّ مفهوم الصّورة هو المحور الأساس الّذي تدور حوله كلّ محاولة لفهم أسرار الأعمال الإبداعيّة الأدبيّة، لذلك تشعّبت الآراء وتنوّعت، ويرى سيسيل دي لويس أنّه كلّما تعمّقنا في البحث عن الصّورة، فلا نخرج إلّا طائفين على سطحها، يقول: «وعندما ننغمس في الحياة الغامضة للصّورة الشّعريّة، فتلك عقوبة لمحاولتنا سبر غور الصّورة بإمعان والطّوف على سطحها، والعزاء الوحيد لنا هو أنّ الشّعراء كانوا هناك قبلنا»[٤]. لذلك يرى «أنّ أوّل خطوة في خلق الصّور هو أن يقرّر الشّاعر نفسه إلى الأشياء التي تستهوي حواسّه»[٥].

ويقف النّاقد والشّاعر الإنجليزي كولردج عند الصّورة وفق نظرية الخيال، حيث يعتبر أن الصّورة الفنيّة هي نتاج للخيال، وهو خيال أوليّ هو التصوّر، يشترك فيه عامّة

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٥٩-٢٦٠.

(٢) غزوان، عناد، دراسات في الشّعر الجاهليّ، دار مجدلاوي للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى ٢٠٠٦م، ص ٧٥.

(٣) صادق، خصوبة القصيدة الجاهليّة، ص ٧٦.

(٤) سيسيل، دي لويس، الصّورة الشّعريّة، ترجمة أحمد نصيّف الجنابيّ وآخرين، دار الرّشيد للنّشر، بغداد، العراق ١٩٨٢م، ص ١٥٩.

(٥) سيسيل، دي لويس، الصّورة الشّعريّة، ص ٧٦.

النّاس، وهو تلقائيّ ومعرفيّ، قوامه الملاحظة، وخيال ثانويّ، يخصّ المبدعين، يتجاوز الملاحظة والعادة إلى الإبداع ويتمّ بعد عمليّة صهر وإذابة ثمّ تشكيل جديد»[١].

«والصّورة الفنيّة إطار يضمّ بين زواياه عناصر عديدة، فهناك الصّورة البلاغيّة الّتي تعتمد على المقوّمات البيانيّة من تشبيه واستعارة ومجاز، وهناك الصّورة الّتي تخلو من العناصر البلاغيّة، ولكنّها مع ذلك تدلّ على خيال خصب، مثل الصّورة الّتي تعتمد على القصّ أو السّرد والحوار، حيث تمتلئ جوانب الصّورة بالحركة والألوان والظّلال والأصوات وغيرها، وهناك صور تعتمد على كلمة واحدة اقتنصها الشّاعر لتلقي بظلالها على الموقف الشّعوريّ، إمّا بجرسها أو بإيحائها»[٢].

ويعرّف محمّد غنيمي هلال الصّورة من وجهة نفسيّة، حيث يقول: «الصّورة تجربة نفسيّة يعيشها المرء»[٣].

إنّ جمال الشّعر مستمدّ من جمال الصّورة، لأنّ الصّورة عماد الشّعر وقوامه وهي بداية الخيط الّذي يقودنا إلى البناء الشّعريّ، وإنّ مقدار الشّاعريّة يتوقّف على الإبداع في التّصوير؛ لذلك شغل تحديد مفهوم الصّورة الفنيّة وأهمّيّتها النّقّاد القدماء والمحدثين بما مرّ معنا من آراء، وما زال البحث قائمًا عن هذا المفهوم في ميدان دراسة الصّورة، يقول جابر عصفور: «ما بذلته من جهد في هذا السّبيل جعلني أقتنع اقتناعًا عميقًا بأنّ

---

(١) بدويّ، محمّد، كولردج: سلسلة نوابغ الفكر العربيّ، دار المعرفة القاهرة، ص ١٥٦.

(٢) نبويّ، عبد العزيز، دراسات في الأدب الجاهليّ، مؤسّسة المختار للنّشر والتّوزيع، القاهرة ٢٠٠١م، ص ٢٤٣.

(٣) هلال، محمّد غنيمي، النّقد الأدبيّ الحديث، دار الثّقافة، بيروت، لبنان ١٩٧٣م، ص٤٥٧.

قضية الصّورة في التّراث النّقديّ العربيّ مشكلة جوهريّة لا تحتاج إلى دراسة واحدة فحسب، بل إلى العديد من الدّراسات المتخصّصة»(١).

وبذلك تكون الصّورة هي ذلك الانطباع الذي حفر في مخيّلة الأديب، ناتجًا عن رؤية بصريّة (شيء مرئيّ)، أو عن رؤية ذهنيّة وهذه تعتمد في الأساس إمّا على الرؤية البصريّة (المرئيّة) أو على المحسوسات أو المسموعات، ويعيد الأديب إنتاج تلك الرؤية بما يتوافق مع فكره وثقافته ولغته. وبذلك تختلف الصّورة من مبدع لآخر وإن كان المُصوّر شيئًا واحدًا في زمن واحد، فلو أردنا التقاط صورة فوتوغرافيّة لمنظر واحد في الزمن ذاته لوجدنا طريقة الالتقاط تختلف من مصوّر لآخر؛ فبالتالي حتمًا سنجد هناك فرقًا في ظهور الشيء المصوّر، ونفس الشيء لو استخدمناه مع الرسّامين لرسم لوحة معينة سنجد لكلّ منهم نظرته ورؤيته.

فالصّورة انطباع لشيء ما في زمن ما، وتؤثّر فيه الثقافة والعوامل النفسيّة والاجتماعيّة، وغيرها من المؤثّرات والمثيرات التي تجعل من المبدع أن يعبّر عن مكنونات نفسه بصور، تظهر بالأساليب البلاغيّة والأسلوبيّة وبطريقة صفّ الكلام وعرضه.

---

(١) عصفور، جابر، الصّورة الفنّيّة في التّراث النّقديّ والبلاغة، دار الثّقافة للصّياغة والنّشر، القاهرة، الطّبعة الثّالثة ١٩٧٤م، ص ٩.

٢,١ أنماط الصّورة

الصّورة تكافؤ وتعادل فنيّان بين الحقيقة والمجاز، لذلك فالصّورة في ضوء هذا التّكافؤ نوعان: الصّورة الحسّية التي تشترك فيها الحواسّ الإنسانيّة الخمس فيقال مثلا هذه صورة بصريّة وتلك سمعيّة وأخرى شميّة ورابعة لمسيّة وخامسة ذوقيّة، والصّورة الذهنيّة أو العقليّة أو التّأمليّة[١]. وقيس بن الخطيم من فحول الجاهليّة، فالصّورة عنده متعدّدة المشارب، فهي متعدّدة في أنماطها، وقد خضّبها الشّاعر بأجناس التّصوير المتعدّدة، وكان لحياة الحرب التي عاشها بين الأوس والخزرج أثر كبير في تعدّد أنماط صوره، بالإضافة إلى بيئة يثرب التي عاش فيها، وما تحويه من مظاهر حضريّة وطبيعيّة.

١,٢,١ الصّورة البصريّة

لا شكّ في أن تطالعنا الصّورة البصريّة في إنتاج أدبيّ لإنسان مبصر، فالبصر نعمة عظمى، فمن خلاله يرى الإنسان ما حوله من مخلوقات وموجودات، وفي البحث في ديوان قيس بن الخطيم نجد أنّ الصّورة البصريّة هي من أكثر الصّور في شعره مقارنة بالصّور السمعيّة واللمسيّة والذّوقيّة والصّور الشّمّيّة.

والصّورة البصريّة في شعر قيس بن الخطيم يمكن تقسيمها إلى قسمين رئيسين: الصّورة البصريّة الحركيّة، وما يرد فيها من صور حركيّة حيويّة تنبض بالحياة بما تحويه الطّبيعة من مخلوقات حيّة وحتّى الجمادات جعلها تنبض بالحياة، نجد هذا في صوره الغزلية في الوصف الجمالي للمرأة، وقد كانت الصور الفنيّة البصريّة الحركيّة تزداد توهّجًا مع صليل السّيوف وتكسير الرّماح، حيث المعركة الطّاحنة الّتي عاشها قيس بن

(١) غزوان، دراسات في الشّعر الجاهليّ، ص ٧٦ - ٧٧.

الخطيم، سواء ما كان منها في طريقه لثأره أو تلك الّتي كانت تشتعل بين الحين والآخر بين الأوس والخزرج .

والقسم الثاني من الصّور البصريّة عند قيس بن الخطيم هو الصّورة البصريّة اللونيّة، وهو ما تشمله هذه الصّور من ألوان زاهيّة برّاقة جميلة خلال شعره الغزليّ وما ورد في جمال الطّبيعة كالورد والأزهار والحمر الوحشيّة، وصور أخرى يميّزها اللون الأحمر والأبيض بلوحة مدادها الدّماء والرّماح والقسيّ.

ومن الصّور البصريّة الحركيّة ما نجده في قول قيس بن الخطيم[1]:

تَنَامُ عَنْ كُبْرِ شَأْنِها فإذا

قَامَتْ رُوَيْدًا تَكَادُ تَنْغَرِفُ[2]

فالمرأة عند قيس لها شأن عظيم فالخدم يلبّون ما تحتاجه، فهي ليست بحاجة إلى أن تقوم بأيّ عمل، لذلك فهي عندما تقوم تكاد تسقط ولا تقوى على الوقوف. ويصوّر مشيتها بعد ذلك في لوحة تنبض بالحركة والجمال، بصورة بصريّة حركيّة لونيّة جميلة. فيصوّر مشيتها برقّة ولين ولطف كمشية بقرة جميلة في أرض ليّنة، ويقول[3]:

تَمْشِي كمَشْيِ الزَّهراء في دَمَثِ الـ

ـرَّمْلِ إلى السّهْلِ دونَهُ الجُرُفُ[4]

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٠٦.

(٢) تنغرف: تسقط.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٠٨.

(٤) الزّهراء: بقرة بيضاء، دمث: مكان ليّن الموطئ، وهي الأرض اللينة السّهلة الرّخوة، الجرف: ما أكل السّيل من أسفل شقّ الوادي والنّهر.

وهي حوراء طويلة العنق جميلة تنثني كعود البان النّاعم الطّريّ الّذي ينثني بسهولة، يقول قيس بن الخطيم[1]:

حَـــوْراءُ جَيْـــداءُ يُسْتَضـــاء بهـــا

كأنّهـــا خُـــوطُ بَانَـــةٍ قَصِـــفُ[2]

وهي كالدّرّة الثّمينة الجميلة الّتي استخرجها الغوّاص من البحر، وكشف عنها الصّدف، يقول الشّاعر[3]:

كأنّهـــا دُرَّةٌ أَحَـــاطَ بِهـــا الــــ

ـغوَّاصُ، يجْلو عن وجهها الصَّدَفُ[4]

وفي موضع آخر تعرض نفسها أمامه وأمام قومه ليروها، مشبّها إيّاها بظبية جميلة فهي غرير ورئم بيضاء، طويلة العنق بزينة الياقوت والزبرجد، في صورة تتدفّق حركة في ألوان زاهية جميلة، يقول[5]:

تَـرَاءتْ لَـنا يَـوْمَ الرَّحيـلِ بمُقْلَـتيْ

غَرِيـرٍ بمُلْتَـفٍّ مِـن السِّـدْرِ مُفْـرَدِ[6]

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان ، ص ١٠٧ .

(٢) حوراء: من الحور وهو شدّة سواد الحدقة مع شدّة البياض، جيداء: طويلة العنق، خوط: قضيب(عود)، البان: شجرة، فهي كغصن البان.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١١١.

(٤) يجلو عن وجهها الصّدف: أي أنّ غشاءه قد انكشف فأبرز وجهها وأظهره.

(٥) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٢٤-١٢٥.

(٦) تراءت لنا: أي تعرّضت لنا لنراها، غرير: يريد ظبيًا؛ وأصل الغرّة قلّة التجربة.

وَجِيــدٍ كجِيــدِ الــرِّئمِ صَــافٍ، يَزِينُــهُ

تَوَقُّــدُ يــاقُوتٍ وفَــصْلِ زَبَرْجَــد[1]

ويصوّرها جميلة كالشّمس عند طلوعها ووقت الغروب، وهي تميل إلى الصّفرة في لونها وغير متصنّعة في حسنها وجمالها وقد سبقت لداتها الشباب فازدادت روعة وبهاءً، وفي ذلك يقول قيس بن الخطيم[2]:

فَرَأيْــتُ مثْــلَ الشّــمْسِ عنــدَ طُلوعِهــا

في الحُسْــــنِ أو كَـــدُنُوّها لِغُــــروبِ

صَـــفْراءُ أعْـــجَلَها الشّــبَابُ لِـــدَاتِها

مَوْسُــومةٌ بالحُسْـــنِ غيــرُ قَطــوبِ[3]

ومن هذه الصّورة اللونيّة الرّائعة، ينتقل إلى صورة حركيّة لونيّة، يصوّر مشيتها على ساقين جميلتين، وفي تبسّمها ينكشف بياض أسنانها فهو كالبرق، أو كقطعة جميلة من الحرير، يقول قيس بن الخطيم[4]:

تَخْطُــو علــى بَرْدِيّتَيْــنِ غَــذَاهُما

غَــدِقٌ بِسَاحَــةِ حــائرٍ يَعْبــوبِ[5]

---

(١) الرئم: ظبي خالص البياض.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٥٧-٥٨.

(٣) صفراء: لونها يضرب إلى الصّفرة من جمالها، أعجلها الشباب لداتها: أي سبقت لداتها في الشّباب.

(٤) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٥٩-٦٠.

(٥) غدق: كثير الماء، حائر: المكان المطمئن الوسط يتحيّر فيه الماء، اليعبوب: الطويل.

تَنْكَــلُّ عـــن حَمْــشِ اللِّثَــاتِ كأنّــهُ

بَـــرَدٌ جَلَتْــهُ الشّـــمْسُ في شُـــؤْبوبِ[(1)]

ومـن الطّبيعـة أيضًـا يـزيّن الشّـاعر صـوره، ويجعلهـا زاهيـة بـألوان الثريّـا في إشـراقة الصباح المنوّرة، فيقول واصفًا ذلك المشهد[(2)]:

وقــدْ لاحَ في الصُّـــبْحِ الثُّريّــا لمَــنْ رأى

كَـــعُنْقُودِ مُلَّاحِـــيّةٍ حِـــينَ نَـــوَّرا

وبعد أن نـال الشّـاعر ثـأره يصـوّر قتلـه وطعنـه ابـن عبـد القيس قاتـل أبيـه، في صورة حركيّة لونيّة، فريشته الّتي يرسم بهـا ويخطـط بها لوحتـه الـرّمح وهـو مـاهر في استخدامه ومداده الدّم، يقول[(3)]:

طَعَنْـــتُ ابـــنَ عبـــدِ القَــيْس طعنــةَ ثــائرٍ

لهـــا نَفَـــذٌ لـــولا الشُّـــعَاعُ أضـــاءها[(4)]

فقيس بن الخطيم لم يطعنه فحسب، بل جعل الّرمح ينفـذ مـن الجانـب الآخـر، وأنّـه لولا الدّم لرأى الضّوء من خلال الثّقب الّذي جعله في ابن عبد القيس، ولكنّـه لـم يكتـف بهذا، بل أخذ يوسّع في مكان الطّعنة، حتّى لم يعد أحد يقدر أن ينظر إلى الطّعنة مـن شـدّة هولها[(5)]:

---

(1) تنكلّ: تبسم، حمش اللثات: رقيقها، الشّؤبوب: الدّفعة من المطر الشّديد الوقع.

(2) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢٣٤.

(3) المرجع نفسه، ص ٤٦ .

(4) نفذ: نفذت إلى الجانب الآخر، الشُّعاع: حمرة الدّم.

(5) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٤٦-٤٨.

مَلَكْـــتُ بهـــا كَفّـــي فـــأنْهرْتُ فَتْقَهـــا

يَــرَى قائمًــا مِــنْ خَلفِهــا مــا وَرَاءهــا[١]

ويبدو جليًا أنّ قيس بن الخطيم بارع في لسانه وسنانه، فهو بعد أن تمكّن من ثأره بصورة بارعة، أخذ يصوغ شعرًا مصوّرًا تلك المعارك وغيرها.

ومن الصّور الّتي وردت في شعر قيس بن الخطيم، تصويره لمساندة خداش بن زهير له في معركته من أجل ثأره، يقول[٢]:

الضَّـــارِبُ البَـــيْضَ المُـــتَقَّنَ صُـــنْعُهُ

يَـــوْمَ الهيـــاجِ بكُـــلّ أبْـــيَضَ صـــافي[٣]

إنْ تَلْـــقَ خَيْـــلَ العـــامرِيِّ مُغـــيرَةً

لا تَلْقَهُـــمْ مُتَعَـــنِّقي الأعـــرافِ[٤]

فالسّيف في يد الممدوح متقن صنعه، وأتقن هو استخدامه بحركة لونيّة، لوحة تلمع فيها السّيوف بيضاء، واستخدم خداش سيفه بكلّ فروسيّة وشجاعة فهو لا يمسك بعنق فرسه لأنّه فارس مقدام.

---

(١) ملكت: شددت، أنهرت: أجريت الدّم، يرى قائمًا من خلفها ما وراءها: أي لتمكّنه واقتداره شدّد بهذه الطّعنة ووسّع خرقها حتّى يرى القائم من دونها الشّيء الذي وراءها.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٩٢.

(٣) البيض: جمع بيضة وهي الخوذة، أبيض صافي: السّيف.

(٤) العامريّ: خداش بن زهير وهو من بني عامر وهم مشهورون بالفروسيّة، ولذلك لا يعتنقون الأعراف: أي لا يعتصمون بأعناق الخيل لئلّا يسقطوا.

ويصوّر الشّاعر شجاعته في المعركة وشدّته فيها، ويرى بأنّ الحرب كريهة؛ فهي «أمٌّ تنجب الشؤم والخراب وأخت مضلة، وهي نار يسجر فيها البشر فتجعلهم رمادًا ورحى تلتهمهم وتتركهم حطامًا، وغول ختور مؤسطرة، مرّة المذاق، كريهة الوجه والجوهر والفعل»[1]، وهو له حضوره وإن لم يشهد المعركة، وبصورة بصريّة يصوّر براعته في استخدام السيف، فتظهر الماء في صفحات السّيف وكأنّها طحارير غيم أو قرون جنادب، ومن ذلك قوله[2]:

فـإنْ غِبـتُ لـم أُغْفَـلْ وإنْ كنْـتُ شـاهِدًا

تَجِـدْني شَـدِيدًا في الكَرِيهَـةِ جـانبي

بِسَـيْفٍ كـأنَّ المـاءَ في صَـفَحاتِهِ

طَحَـارِيرُ غَـيْمٍ أو قُـرونُ جَنـادبِ[3]

والحرب قد أخذت من قيس بن الخطيم نصيبًا وافرًا، ومن تصويره لإحدى المعارك التي وقعت بين الأوس والخزرج، يستخدم الشاعر عنصر الحركة في صورته البصريّة التي يقول فيها[4]:

إذا قَصُـرَتْ أسْـيافُنا كـانَ وَصْـلُها

خُطانـا إلـى أعـدائنا فنضـاربِ[5]

---

(١) الرّفوع، خليل، صورة الحرب في الشّعر الجاهليّ، بحث منشور في مجلّة جامعة قطر للآداب، العدد(٢٨)، ٢٠٠٦م، ص٨٩.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(٣) الطحارير: واحدتها طحرورة وهي قطع السّحاب المتفرّقة.

(٤) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٨٨.

(٥) خطانا: خطواتنا.

أُجالِــدُهُمْ يَــوْمَ الحَدِيقَــةِ حاسِــرًا

كــأَنَّ يَــدي بالسّــيْفِ مخــراقُ لاعــبِ

فالشّاعر يقول إذا لم تستطع السّيوف الوصول إلى الأعداء لقصرها، فإنّه وبنو قومه قادرون على جعلها طويلة بخطاهم وحركة أجسادهم، ويستمرّ الشّاعر مصوّرًا تمكّنه من سيفه وقدرته على تحريكه بصورة حركيّة رائعة حتّى يبدو هذا السّيف كمخراق بيد طفل يلعب به لمرونة حركة يده، وينتقل بهذه الصّورة الحركيّة وما تحدثه هذه الحركة إلى الصّورة الحركيّة اللونيّة، حيث السّيوف متوهّجة بحركاتها، وتخرج بيضاء من أغمادها لتعود حمراء يتقاطر منها الدّم، وذلك في قوله[1]:

وَيَــوْمَ بُعــاثٍ أَسْــلَمَتْنا سُــيُوفُنا

إلــى نَسَــبٍ في جِــذْمِ غَسّــانَ ثاقِــبِ[2]

يُعَــرَّيْن بِيضًــا حِــينَ نَلْــق عَــدُوَّنا

ويُغْمَــدْنَ حُمْــرًا نــاحلاتِ المضــارِبِ[3]

ولا ينفكّ الشّاعر عن تزيين لوحاته بالصّور الحركيّة، فيصوّر ذهاب السّيوف إلى الأعداء وما أعملت فيهم من قتل حتّى ولّوا فارين من أرض المعركة بينما يتميز قيس بن

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٨٩.

(٢) ثاقب: مضيء غير خامل أي متوهج، جِذْم: أصل، ومعنى قول قيس بن الخطيم أنّ سيوفنا رفعتنا إلى حسب حيّ بصير بالحرب.

(٣) حمرًا: من الدّم، ناحلات المضارب: السيوف التي رقّت ظباها من كثرة الاستعمال، المضارب: مضرب السّيف: نحو شبرٍ من طرفه.

الخطيم وقومه بالشّجاعة والإقدام في المعركة، واصفًا إياهم بالواردين إلى الماء، يقول قيس بن الخطيم[1]:

وإنّ سُيُوفَنا ذَهَبَتْ عَلَيْكُمْ
بَني شَرِّ الخَنا مَهَلًا بَعِيدًا

ويأبى جَمْعُكُمْ إلاّ فِرَارًا
ويأبى جَمْعُنا إلاّ وُرُودا

وإنَّ وَعِيدَناكُمْ حِينَ نَمْشي
بهنَّ على المَنون ولا وَعِيدا

ومن صور الفرار تداخل الصّورة البصريّة اللونيّة مع الصّورة البصريّة الحركيّة في حديث قيس بن الخطيم عن هزيمة الأعداء في حرب حاطب، فصوّر الكتيبة تبرق سيوفها، والنّساء هاربات وقد اضطررن للتشمير عن سيقانهنّ للهرب، فبانت خلاخيلهنّ، وهي صورة تبيّن مدى هول المعركة على الأعداء، يقول قيس بن الخطيم[2]:

صَبَحْناهُمُ شَهْباءَ يَبْرُقُ بَيْضُها
تُبِينُ خَلاخِيلَ النّساء الهوارِبِ[3]

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٤٩.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٩١ .

(٣) صبحناهم شهباء: أي كتيبة إذا كانت صافية الحديد، تبين: تكشف، فإذا النّساء هربن حسرن عن أسوقهنّ فتظهر الخلاخيل.

وفي مشهد آخر يصوّر قيس بن الخطيم أعداءه في حالة يرثى لها آلوا إليها فقد غدوا فريقين: فريق مقتول وفريق آخر فارّ هارب من ويل المعركة، هذا المشهد نبصره بما يجول به من حركة الأعداء وهم فارّون[1]:

فإنّــا تَرَكْنــاكُمْ لــدَى الــرَّدْمِ غُــدوةً

فَرِيقَــيْنِ: مَقْــتُولًا بــهِ ومُــطرَّدا [2]

ومن الصّور البصريّة الحركيّة، تصويره للحرب بأنّها امرأة تشمّر، قال قيس بن الخطيم[3]:

وأيّ أخــي حَــرْبٍ إذا هِــيَ شَــمّرَتْ

وَمِــدْرَهِ خَصْــمٍ بَعْــدَ ذاكَ أكــونُ

وبمعنًى مشابه في موضوع آخر يغطّي ثياب السّلام ويلبس ثياب المحارب وهي الدّرع، عندما يرى أنّ الحرب كالمرأة تجرّدت من ثيابها أي أنّ الحرب واقعة لا محالة، يقول[4]:

فلمّــا رأيْــتُ الحَــرْبَ حَرْبًــا تجــرَّدَتْ

لَبِسْــتُ مَــعَ البُــرْدَيْن ثــوْبَ المُحــاربِ[5]

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢١٦.

(٢) الرّدم: اسم مكان بمكّة.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٦٥ .

(٤) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٨٢ .

(٥) ثوب المحارب: الدّرع .

فقد عبّر الشّاعر قيس بن الخطيم عن مبتغاه بصور رائعة جميلة، من خلال صوره البصريّة الّتي تفعم بالحيويّة بما تضمّنته من حركة دؤوبة تتوزّع ما بين الإنسان والحيوان والجماد، متنوعًا في التنقل بين موجودات الطّبيعة. موظفًا إيّاها في تصوير مشاهده التي كانت الحرب تطغى عليها، مزيّنها بألوان الطّبيعة المختلفة.

٢,٢,١ الصّورة السّمعيّة

السّمع هو من حواسّ الإنسان الّتي يستطيع من خلالها التّواصل والتّعامل مع النّاس، من خلال سماعهم وإسماعهم، وعن طريق السّمع نميّز أصوات الحيوانات والرّعد وهدير المياه، ونميّز بين الأصوات الصّادرة من شتّى المخلوقات إن كانت تصدر نبرة حزن أو نغمة فرح. والشّعراء البارعون يوظّفون كافّة الحواسّ في أشعارهم ليصلوا إلى ما ترنو إليه أفكارهم. ويتفاوت الشّعراء في مقدار استخدامهم للحواسّ حتّى أنّنا نجد هذا التّفاوت عند الشّاعر نفسه.

فقد نجد أنّ استخدام شاعر لصُوَرِ حاسّةٍ ما أكثر من غيرها، وهذا لا يُنْقص من شاعريّته شيئًا، وقد تتداخل الحواسّ في الصّور الشّعريّة فيسمّى هذا التّداخل بتراسل الحواسّ.

ومن الصّور السّمعيّة في شعر قيس بن الخطيم، تصويره لظبية جميلة عيطاء، فتصدر صوتًا رخيمًا حين تفقد ابنها، يقول[1]:

فَمـــا ظَبْيَـــةٌ مِـــنْ ظِبـــاء الحِســـا

ء عَيْطـــاءُ تَسْـــمَعُ مِنْهـــا بُغامـــا[2]

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢١٢ .

(٢) الحساء: جمع حسي وهو الرّمل المتراكم أسفله جبل صلد، وفي البادية أحساء كثيرة، عيطاء: طويلة العنق في اعتدال، البغام: صوت الظّبية.

والشّاعر يستجيب لدعوة المستغيث وينهض مع قومه لنجدة من سمعوا صوته مستغيثًا، يقول قيس بن الخطيم[1]:

رِجالٌ متى يُدْعَوْا إلى الموت يُرْقِلوا

إليه كإرْقالِ الجِمَالِ المَصَاعِبِ[2]

إذا فَزِعوا مَدُّوا إلى اللَّيْلِ صارخًا

كَمَوْجِ الأتيّ المُزْبِدِ المُتراكِبِ[3]

وتكون استجابة الشّاعر وقومه لنداء المستغيث بالرّكض نحو الموت والمعركة كركض الإبل الطليقة التي لم تذلل، ومن خلال الصّورة السّمعيّة يصوّر الشّاعر إغاثته وقومه وإقدامهم في المعركة كموج أي كسيل عظيم يهدر صوته باتّجاه العدوّ ويقضي على كلّ ما أمامه، فأراد الشّاعر من خلال هذه الصّورة أن يصوّر إقدامه في المعركة، وإقدام بني قومه، فهم كالسّيل الأعمى كما يقال، فهو لا يرى أمامه شيئًا فيأخذ كلّ ما يجده في طريقه، وهم يقتلون الأعداء ويجهزون عليهم.

وكان الشّاعر في القصيدة نفسها قد استخدم الفعل «دعا» ليسمع صوته أعداءه، ولكن في تلك المرّة كانت دعوته للسّلم، ولمّا لم يستجب الأعداء استمرّ في حربه، يقول قيس بن الخطيم[4]:

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٨٤.

(٢) إرقال البعير: أن ينفض رأسه ويرفعه ويسير سيرًا سريعًا، المصاعب: المصعب: الذي لم يمسّه حبل ولم يذلّل.

(٣) الصّارخ: المغيث، الأتيّ: السّيل يأتيك ولم يصبك مطره .

(٤) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٨٠.

دعَــوْتُ بنــي عَــوْفٍ لحَقْــنِ دمــائهِمْ

فلمّــا أَبَـوْا ســامحْتُ في حَـرْبِ حاطـبِ[1]

ومن الصّور السّمعيّة ما جاء على لسان قيس بن الخطيم وهو يخاطب أعداءه، بأسلوب لا يخلو من التحدي، فيقول[2]:

إنَّ الفَضــــاءَ لنـــا فــلا تَمْشُــوا بِـــه

أبــــدًا بِعَالِيَــــةٍ ولا بِـــــذَنُوبِ[3]

وتفَقّــدُوا تِسْــعِين مِـــنْ سَـــرَوَاتِكُمْ

أَشْــباهَ نَخْــلٍ صُــرّعَتْ لِجنُــوبِ[4]

وسَــلوا صَــرِيحَ الكــاهِنَيْنِ ومالكًــا

عــن مَــنْ لَكُــمْ مــن دارعٍ ونَجيــبِ[5]

فالشّاعر يطلب منهم أن لا يقتربوا قضاء قومه، في صورة سمعيّة لا تخلو من التحدّي فهو يصوّر هرعهم وقتلهم كتقطيع النّخيل الّتي تلقى صرعى على الأرض.

---

(١) بني عوف: أحد قادة الخزرج، سامحت: تابعت.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٦١-٦٢.

(٣) الفضاء: موضع بالمدينة، العالية: أعلى الوادي، الذّنوب: أسفل الوادي، وهو يقصد بذلك أن لا يقتربوا من المكان بأكمله.

(٤) صُرّعت: قطّعت.

(٥) الكاهنان: قريظة والنّضير، دارع : ذو درع على النّسب، نجيب: كريم حسيب.

وفي موضع آخر يوظّف الشّاعر قيس بن الخطيم الصّورة السّمعيّة ليعبّر عن تحدّيه للأعداء، ويذكّرهم بإحدى الوقائع الّتي حلّت بهم من قومه، ويطلب منهم أن يستعدّوا لمثلها، وهو يطلب منهم أن يسمعوا وأن يعتبروا ممّا حلّ بهم، ويقول:[1]:

بِبِئْــــرِ الــــدُّرَيْكِ فاسْــــتَعِدُّوا لِمِثْلِهــــا

وأصْــــغُوا لهــــا آذانَكُــــمْ وتــــأمَّلُوا[2]

ومن الصّور السّمعيّة الحربيّة عند الشّاعر قيس بن الخطيم، أنّه صوّر ذهابه مع قومه إلى الحرب كأنّه زيارة وذلك لتعوّدهم عليها وإنّهم يذهبون جيشًا عظيمًا تضجّ الأرض بأصواتهم، قال قيس بن الخطيم[3]:

زُرْنــــاهُمُ بــــالخَمِيسِ ضَــــاحِيَةً

نُزْجــي إلــى المَــوْتِ جَحْفَــلًا لَجِبَــا[4]

وهم يتقدّمون نحو الحرب بشدّتهم وبطشهم وما يحملونه من أسلحة، وخيل وجمال يركبونها؛ فصوّرهم الشّاعر في زحفهم هذا بأنّهم كالسّحاب لهم حفيف، فالسّحاب تدفعه الرّياح؛ «فهي في هذا السّياق لا تحمل الودْقَ المسجورَ بأمواهه العِذاب ليسقي بلادًا أمحلت حِقبًا، بل هي سحب عبوس جهام مثقلة بالموت»[5]، فهم يقبلون

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٤٠.
(٢) بئر الدريك: اسم بئر في المدينة.
(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٧٥.
(٤) ضاحية: علانيةً جهارًا، نزجي: نسوق، الجحفل: الجيش العظيم، اللَجِب: الكثير الأصوات.
(٥) الرّفوع، خليل، صورة السّحب في الشّعر الجاهلي، بحث منشور في المجلّة الأردنيّة في اللغة العربية وآدابها، المجلد (٢)العدد (٣) جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ/ تموز٢٠٠٦م. ص١١٤.

على الحرب في شدّتهم وقوّتهم، يقول قيس بن الخطيم[1]:

جـــاءتْ بنـــو الأوسِ عارضًـــا بَـــرِدًا

تَحْلِبُــــهُ الـــرّيحُ مُقْــــبِلًا حَلَبـــا[2]

فهي «صورة السحب التي تحلب حلبًا ولا يكون نتاجها خيرًا وحياة بل موتًا متفجرًا وشرًّا مستطيرًا»[3]، فهم كالسّيل في هدره وقوّته، فهو يقتلع كل ما يصادفه، صورة سمعيّة لا تخلو من نبرة التحدّي، وإرهاب العدو، يقول[4]:

أرْعَـــــنَ مِثْـــــلَ الأتــــيّ أعْقَبَــــهُ

صَـــوْبُ مُلِـــثٍّ يُسَـــيِّلُ الحَـــدَبَا[5]

ومن الصّور التي اختلطت فيها أصوات المحاربين بأصوات الخيل، تصويره إحدى المعارك التي تحالفت فيها الخزرج مع كل من بني قريظة وبني النّضير ضدّ الأوس قبيلة الشّاعر، يقول قيس بن الخطيم[6]:

إذا الخَـــزارِجُ نـــادَتْ يَـــوْمَ مَلْحَمَـــةٍ

وشَـــدَّتِ الكاهِنـــانِ الخَيْـــلَ واعْتَرَمـــوا[7]

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١١٤.
(٢) بَرِد: أي فيه برَدٌ؛ أي جاءوا ولهم حفيفٌ كسحاب فيه بَرَدٌ.
(٣) الرّفوع، صورة السّحب في الشّعر الجاهليّ، ص١١٦.
(٤) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٧٦.
(٥) الأرعن: الجيش يُشبَّه برعن الجبل، وهو أنف منه متقدّم، الأتيُّ: سيل يأتيك من غير أن يصيبك مطره، أعقبه: أي جاء بعده، صوب ملثّ: أي مطر دائم فلم ينقطع السّيل.
(٦) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢٠٦.
(٧) يوم ملحمة: يوم معركة، اعترموا: من الشّدّة والقوّة والكثرة.

تَـــداركوا الأَوْسَ لمّـــا رقّ عَظْمُهُــــمُ

حتـــى تَلاقَـــتْ بـــهِ الأرْحـــامُ والـــذِّمَمُ

ولمّا كان الشّاعر في العصر الجاهليّ صوت القبيلة والمدافع عنها بلسانه، وهو يشبه وسائل الإعلام في العصر الحالي، وكانت القبيلة العربيّة تفخر بشعرائها، ولما للشّعر من أثر في سرعة انتشار أخبار القبيلة من شجاعة وكرم، والفخر بالنّصر في المعارك والحديث عن بطولات الفرسان في أرض المعركة، ونشر هذه الأخبار بين القبائل، يقول قيس بن الخطيم[1]:

أَبْلِـــغْ بَنـــي جَحْجَبَـــى وَقَـــوْمَهُمُ

خَـطْـــمَةَ أَنّـــا وَرَاءهُــــمْ أُنُــــفُ[2]

وأنّنـــــا دُونَ مايَســـــومُهُمُ الأعـــــ

ــــداءُ مِـــنْ ضَـــيْمِ خُطّـــةٍ نُكُـــفُ[3]

نَفْلـــي بِحَـــدّ الصَّـــفِيحِ هـــامَهُمُ

وَفَلْيُـــنا هَـــامَهُمْ بِـــنا عُنُـــفُ[4]

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١١٣-١١٥ .

(٢) جحجبى وخطمة: حيّان من الأوس، أُنُفُ: نأنف من ورائهم والرجل الأنوف هو الذي تأخذه الحميّة والنخوة .

(٣) نُكُف: نستنكف ونأنف منه.

(٤) نفلي بحدّ الصّفيح: نعلوهم بالسّيوف ونقتلهم .

ومن الصّور السّمعيّة الّتي تكشف عن شجاعة قيس بن الخطيم، حمده شدّة هول جراحه في الأعداء في صورة سمعيّة بصريّة يختلط فيها صوت حمده ولون الدّماء، حيث يقول[1]:

يَـــهونُ علـــيَّ أن تَـــرُدَّ جِرَاحُـــهُ
عُيـونَ الأواسِـي إذْ حَمِـدْتُ بلاءهـا
وكنـتُ امْـرءًا لا أسْـمعُ الـدَّهْرَ سُـبَّةً
أُسَـبُّ بهـا إلاّ كَشَـفْتُ غِطاءهـا

فهو لا يلين له جانب، ومن خلال الصّورة السّمعيّة أشار إلى أنّه يردّ أيّ إهانة أو مسبّة يتعرّض لها وهو بذلك يرمي إلى ثأره، وإنّه أخذ به.

وبعيدًا عن المعارك وصوت الحرب وطبولها، يصوّر لنا قيس بن الخطيم حلاوة منطق المرأة، وإنّ له لذّة وخاصّة إن كانت ترسل حديثها دون تكلّف وهو ما تشتهيه العرب في منطق المرأة:[2]:

ولا يَغِـثُّ الحَـدِيثُ مـا نَطَقَـتْ
وَهْـوَ بِفِيهـا ذُو لَـذَّةٍ طَـرِفُ[3]

وأرى أنّ قيس بن الخطيم قد نجح في استخدامه للصّور السّمعيّة وقد تنوّعت عنده الأصوات: فمنها أصوات رقيقة حين تتحدّث المرأة، وأصوات صخبة ضجّت بها المعارك.

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٤٨-٤٩.
(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٠٩ .
(٣) بفيها: من فيها، ذو لذّة طرف: أي ذو لذّة طرب.

٣,٢,١ الصّورة اللمسيّة

اللمس حاسّة مهمّة في إدراك الجمال، بل إنّ اللمس يتيح لنا أن نشعر بإحساسات فنّيّة من كلّ نوع، حتّى كاد أن ينوب مناب البصر إلى حدّ بعيد، وإذا كانت حاسّة اللمس عاجزة عن إدراك الألوان فإنّها تطلعنا على ناحية جماليّة، لا تستطيع العين وحدها أن تطلعنا عليها كالنّعومة والملاسة[1]. وأحسّ الشّعراء باللمس فظهرت في أشعارهم صور تميّزها النّعومة والرّقة والملمس النّاعم اللطيف، وصور أخرى ملمسها خشن وخاصّة تلك التي تتّصل بالحرب، وقد وجدنا عند قيس بن الخطيم الصّور اللمسيّة النّعمة والصّور اللمسيّة الخشنة، ولكنّ الميزان مال أكثر إلى النّوع الثّاني.

ومن الصّور اللمسية الليّنة النّاعمة تصوير ابن الخطيم فرسه بأنّها ملساء، ولكن ما أراده من هذه النّعومة الإشارة إلى أنّ فرسه شديدة في المعركة، فهي قوائمها رفيعة، يقول[2]:

رَبِذٍ قَوَائِمُهُ شَدِيدٍ أَسْرُهُ

صَلْتِ المُعَذَّرِ ذي سَبِيبٍ ضافِ[3]

ومن الصّور الحسّيّة اللمسيّة التي يطالعنا بها الشّاعر تصويره لإحدى المعارك التي وقعت بين قومه الأوس والخزرج في منطقة تقع بين الشّرعبي وراتج بالقرب من المدينة، وصوّر الشّاعر ما قام به وقومه في أعدائهم من قتل وضرب؛ فقد قطّعوهم إربًا

---

(١) ماري، جان مسائل فلسفة الفنّ ترجمة سامي الدروبيّ، الطّبعة الثّانية، دمشق ١٩٦٥م، ص٤١.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٩٤.

(٣) الرّبذ: سرعة رفع القوائم ووضعها، أسره: شدّة خلقه، الصّلت: الأملس المستوي الواسع، المعذّر: موضع اللجام، السّبيب: شعر النّاصية والعرف والذّنب.

كتقطيع الشّجر ذي الملمس الخشن (ذي الشّوك)؛ فكانت صورة لمسيّة خشنة عبّرت عن الحالة النّفسية للشّاعر المحارب وهو يقارع السّيوف، يقول قيس بن الخطيم[1]:

ألا إنَّ بَــــيْنَ الشَّــــرْعَبيّ ورَاتِـــجِ

ضِــرَابًا كتَخْــذِيمِ السَّــيالِ المُعضَّــدِ[2]

ويصوّر الشّاعر كتيبة الأعداء ملمومة على صفاة ملساء وكيف دار قومه عليهم وأعملوا فيهم القتل، فهي كالرّحى وهم يدوّرونها على أعدائهم، وهي صورة لمسيّة أراد أن يرمز بها الشّاعر إلى سهولة قتل أعدائهم من خلال استخدامه لوصف الرّحاة الّتي يسهل دورانها، يقول قيس بن الخطيم[3]:

ومَلْمومَـــــةٍ كَصَـــــفاةِ المَسِيـــــ

ـــلِ دارتْ رَحاهـــا وَدُرْنـــا بهـــا[4]

وفي صورة حركيّة لمسيّة أخرى يصوّر لنا قيس بن الخطيم الذين يشعلون نار الحرب كالّذين يمسحون بأيديهم ضرع النّاقة كي تدرّ، وهي صورة «مستوحاة من عمليّة حلب النّاقة واستدرارها»[5]، فلمّا كانت ملامسة ضرع النّاقة يجعلها تحنّ وتدرّ فالأعداء يلامسون بأيديهم مسبّبات الحرب، التي يقول قيس بن الخطيم أنّ قومه أصحاب لواء هذه الحرب[6]:

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٢٥.

(٢) تخذيم: تقطيع، السّيَال: شجر له شوك أبيض، المعضّد: المقطّع.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٣٦.

(٤) ملمومة: يقصد كتيبة مجتمعة، الصّفاة: الصّخرة الملساء.

(٥) الرّفوع، صورة الحرب في الشّعر الجاهليّ، ص٧٩.

(٦) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٥٠.

وإنّـا إذا مـا مُمْتَـرُو الحَـرْبِ بَلّحُـوا

نُقـيمُ بأسْـبادِ العَـرِينِ لواءهـا[1]

وعلى الرّغم من وجود العديد من الصّور اللمسيّة النّاعمة المعبّرة عن النّعومة، وترمز إلى اللين والرّقّة إلّا أنّنا نجد أنّ صور قيس بن الخطيم اللمسيّة هي في غالبها صور خشنة الملمس ولا غرابة في ذلك فهي صور لوحتها ساحة الوغى ومدادها السّيوف والقنا.

٤,٢,١ الصّورة الذّوقيّة

الصّورة الذوقيّة هي من الصّور التي تزيّن الشّعر الجاهليّ، وهي كل ما يتذوّقه الإنسان بلسانه من طعام وشراب، متنوّع المذاق بين حلو ومرّ، ومالح وعذب، ونجد في شعر قيس بن الخطيم صورًا ذوقيّةً متنوعةً، ومن ذلك قوله[2]:

ولمّـا هَبَطْنـا الحَـرْثَ قـال أميرُنـا:

حَـرَامٌ علينـا الخَمْـرُ مـا لـم نُضـارِبِ[3]

فالشّاعر يتحدّث عن عادة شرب الخمر في الجاهليّة ومدى التصاقها بحياتهم، لأنّه عندما اشتعلت الحرب حرّم سيّدهم الخمر على نفسه حتّى يظفر بأعدائه، وهي من العادات الجاهليّة خاصّة في قصّة الثأر، فيحرّم صاحب الثّأر الخمر والنّساء على نفسه

(١) ممترو الحرب: الذين يستدرّونها، بلّحوا: أعيوا، أسباد العرين: الأسود.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٩٤.

(٣) الحرث: موضع من نواحي المدينة.

حتّى يحقّق ثأره، ثمّ يتابع قيس حديثه: كيف أُحلّ لهم شرب الخمر بعد ذلك؟ أي بعد أن تحقّق لهم النّصر، فقال[1]:

فَســـامَحَهُ مِنّـــا رِجـــالٌ أعِـــزَّةٌ

فمـا بَرِحُـوا حتّـى أُحِلّـتْ لِشـارِبِ

وفي موضع آخر من القصيدة نفسها يصوّر قيس بن الخطيم الابتعاد عن شرب الخمر وهو من الاستعداد للحرب، وقد يكون ذلك لأنّ الخمرة تبعد الإنسان عن الواقع فتضعف قوّته وعزيمته، فقال في ذلك[2]:

ومِنّـا الـذي آلـى ثلاثـين ليلَـةً

عـنِ الخَمْـرِ حتـى زَارَكُـمْ بالكتائـبِ

وفي صورة أخرى يشبّه الشّاعر الموت بالكؤوس، شرع قومه في سقاية هذه الكؤوس للأعداء، فالموت شراب يسقيه الشّاعر لأعدائه، وذلك في قوله[3]:

سَـقَيْنا بالفضـاء كـؤوسَ حَتْـفٍ

بَنـي عَـوْفٍ وإخْـوَتَهُمْ تَزِيـدا[4]

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٩٥ .

(٢) المرجع نفسه، ص ٩١ .

(٣) المرجع نفسه، ص ١٤٧ .

(٤) الفضاء: موضع بالمدينة، بنو عوف وتزيد: أعداؤه من بني الخزرج.

وفي صورة ذوقيّة أخرى يفخر الشّاعر بقومه ويتحدّى أعداءه ويصف قتال قومه بأنّه مرّ كالحنظل وهو ليس سهلًا كما يعتقد أعداؤه بأنّ قتال قوم قيس كأكل الفغايا والهبيد، يقول الشّاعر[1]:

أَكُنْـــتُمْ تَحْسِـــبُون قِتـــالَ قَـــوْمي

كـــأَكْلِكُمُ الفَغَايـــا والهَبِيـــدا[2]

هكذا وظّف قيس بن الخطيم حاسّة الذّوق عنده في صورة عبّر من خلالها إمّا عن الاستعداد للمعركة أو عن المعركة نفسها، وفي ذلك تحدٍّ صريحٌ وواضح لأعداء قومه، وبيّن لنا من خلالها بعض ملامح الحياة الجاهليّة من الحرب والطّعام والشّراب.

٥,٢,١ الصّورة الشّمّيّة

إنّ البحث في الصّورة الشّمّيّة لا يخرج من إطار حاسّة الشّمّ، تلك الحاسّة الّتي تؤدّي إلى الانفعال في غياب الجسم، والصّورة الشّمّيّة صورة منتشرة بإمكانها التأثير بفعلها وإن كان جسمها غائبًا أو محجوبًا، فهي مستعصية على الحجب وحاسّة الشّمّ من الحواسّ الّتي تمكّن الإنسان من استبدال الأشياء بما يشير إليها من أمارات وعلامات[3].

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص١٤٨.

(٢) الفغايا: أن يركب النّخلة غُبارٌ فيغلظ جلد بسرها أي هو التّمر الذي يغلظ ويصير فيه مثل أجنحة الجراد، الهبيد: حبّ الحنظل الذي ينقع لأيّام حتى تخرج مرارته.

(٣) مراد، يوسف، مبادئ علم النّفس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ٦٤.

ومن الصّور الشّمّيّة الّتي تظهر عند قيس بن الخطيم، تصويره لإحدى الرّياض الجميلة، وفي تصوير مقلوب صوّر المصابيح بالحوذان، يقول[1]:

فمـــا رَوْضَــــةٌ مِـــنْ رِيـــاضِ القَطـــا

كـــأنَّ المصـــابِيحَ حَوْذَانُهـــــا[2]

فالشّاعر يعبّر عن جمال هذه الرّوضة، ويصوّر الرائحة الطّيّبة الصّادرة من النّبات الطّيب كأنّها مصابيح تضيء المكان.

وفي صورة شميّة أخرى يصوّر الشّاعر الرّائحة الجميلة الصّادرة من المرأة وكأنّها المسك، يقول قيس بن الخطيم[3]:

وعَمْــــرَة مـــنْ سَـــرَوَاتِ النِّسَـــا

ء تَــــنْفَحُ بالمسْـــكِ أرْدَانُهـــــا[4]

وهو يرمز بعمرةَ إلى قبيلته وهي في سمعتها الطّيّبة كالمسك.

ومن الصّور الشّمّيّة الّتي يطالعنا بها قيس بن الخطيم تصويره لرائحة القرنفل والزّنجبيل ورائحة العبير الفائحة بجلبابها، وذلك في قوله[5]:

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٦٧.

(٢) الرّوضة: البقعة يجتمع إليها الماء فيكثر نبتها، ولا يقال ذلك في مواضع الشّجر، حوذانها: نبْتٌ طيّب الرّيح له زهرة حسنة.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٦٩.

(٤) سروات: أشراف، أردانها: ما يلي الذراعين جميعًا والإبطين من الكمين.

(٥) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٣٥.

كـــأنَّ القَرَنْفُــــلَ والزَّنْجَبيـــلَ

وذاكـــي العَبِيـــرِ بِجِلْبَابِهـــا

تتمّ حاسّة الشّمّ عبر الأنف وهو رمز للأنفة والإباء عند العرب، ورمز للشموخ والكبرياء. وبهذا تميّز قيس بن الخطيم؛ فقد طالعنا بالعديد من الصّور الفنّيّة المبتكرة؛ فكانت ذات رائحة طيّبة، وهي بذلك تعبّر عن مكنونات نفسه الطّيّبة، وثقافته الواسعة من خلال مقدرته توظيف العناصر المختلفة وتخضيبها بالرّائحة الزّكيّة الجميلة.

وخلاصة القول في هذا الفصل نجد أنّ النّقاد القدامى والمحدثين قد تباينت آراؤهم وتعدّدت نظرتهم للصّورة الفنّيّة، وتشعّبت تعريفاتهم لمفهومها بدءًا من الجاحظ ومن تبعه من النّقاد القدماء، وما زال ذلك النّقاش مستمرًّا، وسيبقى ذلك ما دام في الكون حياة، ولا أجد حرجًا أن أعيد هنا مرّةً أخرى مقولة جابر عصفور[1]:« ما بذلته من جهد في هذا السّبيل جعلني أقتنع اقتناعًا عميقًا بأنّ قضيّة الصّورة في التّراث النّقدي العربيّ مشكلة جوهريّة لا تحتاج إلى دراسة واحدة فحسب، بل إلى العديد من الدّراسات المتخصّصة».

وفي هذا توقفت على أنماط الصّورة في شعر قيس بن الخطيم، وقد تعدّدت هذه الأنماط وتنوّعت، من صور بصريّة وسمعيّة ولمسيّة وذوقيّة وشمّيّة.

وقد أبدع قيس بن الخطيم في صوره وكانت هذه الصّور حياةً نابضةً، وقد امتلأت حيويّةً ونشاطًا. وتميّزت الصّورة البصريّة بشقيها الحركيّة واللونيّة بما ضجّت به الطّبيعة من ورود وأزهار زاهية جميلة، وفي الجانب الآخر خضّب قيس لوحته باللون الأحمر،

(١) عصفور، جابر، الصّورة الفنيّة في التّراث النقدي والبلاغي، ص٩.

لون الدّماء بما عجّت به المعارك من حركة للسّيوف والرّماح، وصدحت به أصوات المحاربين وصهيل الخيل، مشكّلًا بذلك صورًا سمعيّة، خفّف وطأتها أحيانًا بأصوات الظباء الرّقيقة ليعبّر عن إنسانيّته، التي زادها لينًا برائحة الطّيب الفائح من الطّبيعة ومن النّساء في توظيف منه لحاسّة الشّم في تزيين صوره.

أمّا حاسّة اللّمس وما أظهره قيس بن الخطيم من مهارته الشّعريّة فقد أولج الطّبيعة في ساحة الوغى ليخرج لنا صورًا متفاوتةً بين الملمس النّاعم واللّيّن وبين أسنّة الرماح وتضميد الجراح. وما زاد هذه الصّور خشونة هو تذوّقه لطعم الحرب ومرارتها وكيف أطعم أعداءه مرّها من حنظل، وجرّعهم شرابها، في صور ذوقيّة توقّف عليها الشّاعر، عبّرت عن معاناة الجاهليّ في حروبه ومعاركه، التي تفرض عليه كراهة الحرب عندهم.

الفصل الثّاني

مصادر الصّورة

إنّ الصّورة الفنّيّة تتنوّع من شاعر إلى آخر، ويبدو أنّ لهذه الصّور مصادر يبتدع الشّاعر بسبب تنوّعها صوره، فالشّاعر ينظر إلى هذه الصّور المتنوّعة - التي هو في الحقيقة يعايشها - نظرة تأمّل فتجيش نفسه، ويعبّر عن ذلك شعرًا.

والشّاعر قيس بن الخطيم كغيره من الشّعراء فلهذه المصادر أثرها الواضح في شعره وتصويره، ومن هذه المصادر التي سنناقشها في هذا الفصل الإنسان والطّبيعة والحياة الاجتماعيّة (اليوميّة) والثّقافة.

١,٢ الإنسان

الإنسان هو المخلوق الذي خصّه الله تعالى بالتّكريم، وهو الذي حمل أمانة السموات والأرض وهو خليفة الله في الأرض يعبده ويعمرها، ويمكن القول إنّ الإنسان هو محور الحياة على الأرض وكل شيء ينقاد له، ولذلك لا بدّ أن يكون لهذا الإنسان دوره الفعّال في ميادين الحياة يؤثّر ويتأثّر. وفي دراستنا هذه نخصّ ميدان الأدب: الشّعر منه خاصّة، متوقفين على ذلك في شعر قيس بن الخطيم.

ومن الصّور ذات المتعلّقات الإنسانيّة عند قيس بن الخطيم، تصويره لاضطراب قلوب بني قومه إشفاقًا على أعدائهم الذين يقاتلونهم، يقول(١):

إنّـا وَلَـوْ قَـدَّمُوا التـي عَلِمـوا

أكْبادُنَـا مِـنْ وَرَائِهِـمْ تَجِـفُ(٢)

وما كان هذا الإشفاق عند قيس وقومه على الرّغم من ضراوة عداوتهم اتّجاههم، إلاّ لأنّ هناك رابطًا بينهم وبين أعدائهم، وهو صلة الرّحم، يقول الشّاعر(٣):

لمّـا بَـدتْ غُـدْوَةً جِبـاهُهُمُ

حَنّـتْ إلينـا الأرْحـامُ والصُّـحُفُ(٤)

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١١٦.

(٢) تجف: تضطرب، وجف القلب: خفق.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١١٧.

(٤) الصّحف: التي كتب فيها الحلف بينهم.

فاستخدم الشّاعر (غُدوة جباههم) و(حنّت) و(الأرحام) و(الصُّحف) وهي كلّها ممّا له علاقة بالإنسان، فالجباه جزء حيّ والحنين شعور يكمن في النّفس الإنسانيّة والأرحام جزء حيّ وصلة اجتماعيّة يختصّ بها الإنسان، والصّحف من الأشياء التي لا يستخدمها إلاّ الإنسان .

وعلى النّقيض من الشّفقة وصلة الأرحام، يصوّر لنا الشّاعر كيف امتنع أميرهم عن شرب الخمر وحرّمه على نفسه وعلى المحاربين معه حتى يظفروا بأعدائهم وقد كان من عادة الجاهليين تحريم النساء وتحريم الخمر على أنفسهم حتى يظفروا بثأرهم، يقول قيس بن الخطيم[1]:

ولمّا هَبَطْنا الحَرْثَ قال أميرُنا:

حَرَامٌ عَلينا الخَمْرُ ما لم نُضارِبَ

فَسامَحَهُ مِنّا رِجالٌ أعِزَّةٌ

فما بَرِحُوا حتى أُحِلّتْ لِشارِبِ[2]

أمّا أمير الأعداء الذي رفض السّلم فكان أول قتيل كما يقول قيس بن الخطيم[3]:

أطاعَتْ بَنُو عَوْفٍ أميرًا نهاهُمُ

عَنِ السِّلْمِ حتى كان أوّلَ واجبِ[4]

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٩٤-٩٥.

(٢) سامحه: تابعه، فما برحوا حتى أحلّت لشارب: أي بعد أن حقّق الثأر.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٩٠.

(٤) واجب: ميّت.

وقومه رجال أشدّاء يصورهم الشّاعر في المعركة؛ فيشبّههم بالأسود في المنعة والشدّة فهم يدافعون ويقاتلون بقوّة وشجاعة، أمّا الأعداء فقد فرّ قائدهم من المعركة، ولو بقي ليقاتل فلن يجد حوله من قومه وأحبّته أحدًا فقد قتل من قتل وهرب من نجا من الموت، فقال[1]:

سَلِ المَرْءَ عَبْدَ الله إذْ فرَّ هلْ رأى

كتائبَنا في الحَرْبِ كيْفَ مِصَاعُها[2]

ولَوْ قامَ لَمْ يَلْقَ الأحِبّةَ بَعْدَها

ولاقى أُسُودًا هَصْرُها ودِفاعُها[3]

وفي يوم بعاث وهو من الأيّام المشهورة في الوقائع بين الأوس والخزرج، يصوّر هزيمة الأعداء معتمدًا في صورته على رجال قبيلته وذلك من خلال كتيبتهم، فقال[4]:

ونحنُ هَزَمْنا جَمْعَكُمْ بكَتيبةٍ

تَضَاءلَ مِنها حَزْنُ قَوْرى وقاعُها[5]

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٤٢.

(٢) مصاعها: قتال ومجالدة.

(٣) الهصر: الغمز والجذب.

(٤) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٤٢.

(٥) تضاءل: تصاغر للرجل إذا كان نحيفًا، قورى: اسم موضع، الحَزن: ماغلظ من الأرض في ارتفاع، القاع: المكان المستوي الواسع في وطأة من الأرض.

ويشبّه ثبات قومه في المعركة وإقبالهم عليها بالإبل؛ فعندما ينصرف غيرهم فهم يقبلون، فورودهم الحرب بشدّة مثل الإبل التي انقطعت عن الماء. وكان ثمرة صبرهم وثباتهم أن تركوا الأعداء جثثًا خامدة موتى تأكلهم الضّباع، يقول قيس بن الخطيم[١]:

إذا هَمَّ جَمْعٌ بانصرافٍ تَعَطّفُوا

تَعطُّفَ وِرْدِ الخِمسِ أطّتْ رِباعُها[٢]

تَرَكْنا بُعاثًا يَوْمَ ذلك مِنْهُمُ

وقَوْرَى على رَغْمٍ شِباعًا ضِباعُها

ومن المصادر الإنسانيّة للصّورة عند قيس بن الخطيم المرأة، والمرأة شريكة الرجل في الحياة، إليها يسكن، وعليها يخاف، ومن المعروف أنّ المرأة كانت معزّزة للرّجل في ساحة الحرب، حتّى أنّ المقاتلين كانوا يصطحبون النّساء للمعركة ليستبسلوا فيها. وعند البحث في شعر قيس بن الخطيم نجد الشّاعر يتحدث عن المرأة في جانبين: الجانب الغزليّ، والجانب الحربيّ.

ويصوّر لنا الشّاعر قدرته وقدرة قومه على حماية نسائهم من الأعداء، أمّا أعداؤهم فلا يستطيعون ذلك، يقول قيس بن الخطيم[٣]:

وإنّا مَنَعْنا في بُعَاثٍ نِساءنا

وما مَنَعَتْ مِ المخْزِياتِ نِساءها

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٤٣-١٤٤ .

(٢) أطّت: حنّت، تعطّفوا: أي تجمّعوا ومال بعضهم إلى بعض وثبتوا ولم يفروا، وِرْد: الإبل الواردة، الخمْس: أن تشرب الإبل الماء يومًا وتدعه ثلاثة أيام ثمّ ترد الماء اليوم الرّابع، الرّباع: جمع رُبَع وهو الفصيل الذي يولد في الرّبيع وهو أول النّتاج.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٥١ .

وفي موضع آخر يعود قومه إلى أبنائهم ونسائهم، أمّا الأعداء فكان مصيرهم مختلف، فيقول[1]:

فَأَبْنـــا إلـــى أبْنائنـــا ونِســـائنا

ومـــا مَـــنْ تَرَكْنـــا في بُعـــاثٍ بآئـــبِ

وفي مشهد حربيّ، يصوّر الشّاعر المذلّة التي تعرّض لها الأعداء فهربوا ولم تجد النّساء من يدافع عنهن فهربن وكشفن عن أسوقهنّ حتّى ظهرت خلاخيلهنّ، قال قيس بن الخطيم[2]:

صَـــبَحْناهُمُ شَـــهْباءَ يَبْـــرُقُ بَيْضُـــها

تُبِـــينُ خَلاخِيـــلَ النّســـاء الهـــوارِبِ

ويشعر الشّاعر بالشّفقة على الأعداء، ويرقّ قلبه للحالة التي آلوا إليها ويصوّر نساء الأعداء وقد تمنين لو أنّ قومهنّ لم يحاربوا، قال[3]:

أوَيْـــتُ لِعَـــوْفٍ إذْ تقـــولُ نســـاؤهُمْ

وَيَـــرْمِينَ دَفْعًـــا: لَيْتَنـــا لـــم نُحـــارِبِ[4]

ومن الصّور الحربيّة التي كانت المرأة مصدرها يشبّه الشّاعر الحرب عند اشتدادها بالمرأة التي تشمرّ، كقوله[5]:

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٩٦ .

(٢) المرجع نفسه، ص ٩١ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٩٠ .

(٤) أويت لعوف: نرثي له ونشفق عليه، يرمين دفعًا: أي يرميننا من فوق الآطام دفعًا عن أنفسهنّ.

(٥) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٦٥ .

وأيّ أخـــي حَــرْبٍ إذا هِـــيَ شَـــمّرَتْ

وَمِـــدْرَهِ خَصْـــمٍ بَعْـــدَ ذاكَ أكـــونُ

والحرب عنده كالمرأة تلقي رداءها، وذلك في قوله[1]:

وقَــد جَرَّبَــتْ منّــي لَــدى كـلّ مـأْقِطٍ

دُحَــيٌّ إذا مـا الحَـرْبُ أَلْقَــتْ رِداءهـا[2]

وإذا تركنا الحديث عن الكريهة، وذهبنا إلى ما هو محبّب إلى النّفس وهو الغزل حيث الطّرب والرّقة نجد الشّاعر أبدع في صوره من خلال اعتماده على المرأة مصدرًا إنسانيًّا ألهم الشّاعر، وهيّج بواعث الحبّ والحنان عنده، فأغنى شعره بصورٍ جميلة رائعة، زادتها جمالًا وبهاءً قدرة الشّاعر على استثمار مصادر أخرى ليزيّن بها صوره.

ومن الصّور الجميلة للمرأة أن وصفها بأنّها حوراء وطويلة العنق ووجهها مضيء، وهي في نعومتها كعود البان، قال قيس بن الخطيم[3]:

حَـــوْراءُ جَيْـــداءُ يُسْتَضـــاء بهـــا

كأنّهـــا خُـــوطُ بَانَـــةٍ قَصِـــفُ

تَمْشـــي كمَشْـــيِ الزَّهـــراء في دَمَـــثِ الـــ

ـــرَّمْلِ إلـــى السّـــهْلِ دونَـــهُ الجُـــرُفُ

---

(١) المرجع نفسه، ص ٥٠.

(٢) المأقط: المضيق في الحرب، ألقت رداءها: أي تجرّدت.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٠٧-١٠٨.

فصوّرها ببقرة وحشيّة بيضاء جميلة وصوّر مشيتها كتلك البقرة التي تمشي في منطقة ليّنة بنعومة ورقّة.

وهذه الصّور الجميلة التي زيّنت شعر قيس بن الخطيم، قد اعتمدت على المصدر الإنسانيّ، وبرزت براعة الشّاعر في قدرته على إخراج ما في جعبته بأسلوب معبّر ينمّ عن قدرة الشّاعر على التفنّن في صوره.



٢,٢ الحياة اليوميّة:

في هذا الموضوع سنتحدث عن الحياة اليومية باعتبارها مصدرًا من مصادر الصّورة الفنيّة عند قيس بن الخطيم، تلك الحياة التي عاشها الشّاعر وخبرها وعاش أحداثها، ومافيها من طبيعة خلاّبة وحياة مدنيّة وبدويّة وما فيها من فرح وحزن، أمدّت الشّاعر بالصّور، وصنع منها شعرًا عبّر فيه عن مكنونات نفسه ولواعج قلبه.

إنّ الأخبار التي وصلت إلينا عن قيس بن الخطيم كما تحدّثت المصادر عن حياته، قد بدأت بقصّة ثأره المشهورة. وقد أنشد الشّاعر في ذلك شعرًا، وقال بعد أن أخذ بثأره[١]:

ثأرْتُ عَديًّا والخَطِيم فَلَمْ أُضِعْ
وِلايَةَ أشْياءٍ جُعِلْتُ إزاءها

فالشّاعر قد قال قصيدته هذه بعد ثأره من قتلة أبيه وجدّه، فهو يكرّس جانبًا من الحياة التي عاشها العربيّ في تلك الفترة وهي عادة الثأر التي لاحظنا كيف افتخر قيس بقدرته على تحقيق ثأره، فهو قد استجاب لتحدّي الثّأر، وهو وفيٌّ للعادات والتّقاليد السّائدة في ذلك الوقت، وقادر على تحمّل المسؤوليّة.

وقد كانت الحروب التي وقعت بين الأوس والخزرج هي أهمّ وأجلّ الأحداث والوقائع اليوميّة التي جعلت من الفارس قيس بن الخطيم شاعرًا مقدامًا، يقول الشاعر[٢]:

(١) المرجع نفسه، ص ٤٣ .

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢٢٧ .

أَتَــتْ عُصْــبَةٌ لــلأوْسِ تَخْطُــرُ بالقَنــا

كمَشْــيِ الأُســودِ في رَشــاشِ الأهاضِــبِ

فـإن غِبـتُ لـم أُغْفَـلْ وإنْ كنـتُ شـاهِدًا

تَجِــدْني شَــدِيدًا في الكَرِيهَــةِ جــانبي

فقـد تحـدث الشـاعر في البيتـين السـابقين عـن شـجاعة قومـه وصـورهم بالأسـود لإقدامهم في المعركة فهم شجعانٌ يمشون إلى المعركة كمشي الأسود، أمّا هـو فيفتخر بشدّته وشجاعته في الكريهة كما وصف الحرب، ويقـول بـأنّ لـه مكانتـه ودوره بـين بني قومه، فهو إن لم يشارك في المعركة فهذا لا يعني إغفال دوره فيها.

والأوس قبيلة قويّة فبنوها كالنّار التي تأكل الحطب، في إشارة من الشّاعر إلى قدرة قومه على القضاء على الأعداء وإفنائهم، يقول قيس بن الخطيم[1] :

إنّ بنــي الأوسِ حِــينَ تَسْــتَعِرُ الــ

ــحَرْبُ لكالنّــارِ تأكــلُ الحَطَبَــا

وقومه صادقون في الحرب، وهم يجرحون ويداوون، وقد قتلوا قائد عـدوّهم، فولّى الأعداء هاربين، يقول في ذلك[2]

إنّ بَنــي الأوْسِ مَعْشَــرٌ صَــدَقُوا الــ

ــضَرْبَ وَسَــنُّوا الإســاءَ والنَّــدَبَا[3]

(١) المرجع نفسه، ص ١٧٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٧٧.

(٣) الإساء: الدواء، النَّدب: آثار الجراح.

فَصَمَدُوا رَأس كَبْشِ إخْوَتِهِمْ

حتّى تَوَلَّوا واسْتَنْفَروا هَرَبَا

وقوم الشّاعر يستطيعون الوصول إلى المكان الذي يريدونه إلاّ الغرف؛ لأنّه لا يختبئ فيها إلاّ النساء في دلالة على قوة قومه وشجاعتهم فهم قادرون على الوصول إلى الأعداء أينما كانوا، ويتميّزون بالشّهامة فلا يدخلون الغرف؛ لأنّ النّساء تختبئ فيها وهي أيضًا كناية عن جبن الأعداء فهم يختبئون كالنّساء، يقول قيس بن الخطيم[١]:

فَلَمْ تَمْنَعُوا مِنّا مكانًا نُرِيدُهُ

لَكُمْ مُحْرِزًا إلا ظُهُورَ المشارِبِ[٢]

ومن مواطن الحياة اليومية عند الشاعر وقوفه على الأطلال، يقول الشاعر[٣]:

أَتَعْرِفُ رَسْمًا كاطِّرَادِ المَذاهبِ

لعَمْرَةَ وَحْشًا غيرَ مَوْقِفِ راكبِ

ديارَ التي كادتْ -ونحنُ على مِنىً-

تَحُلُّ بنا، لولا نَجاءُ الرَّكائبِ[٤]

وهذه هي المقدّمة الطّللية الوحيدة في ديوان الشّاعر ولعلّ ذلك يعزى إلى الحياة الرّخيّة المستقرّة التي كانت ترفل بها المدينة، فصرفته عن ذكر الأطلال التي ظلّت وثيقة

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٩٣.

(٢) المشارب : الغرف .

(٣) ابن الخطيم،الدّيوان، ص ٧٦-٧٧.

(٤) النجاء: سرعة السير.

الصّلة بحياة البادية التي اعتاد أهلها على التّنقل والأسفار انتجاعا للكلأ فألفوا العيش في ظل الخيام[1]. وقيس بن الخطيم عاش في المدينة وكان لاهتمام أهل المدينة بالزّراعة أن زاد في ارتباطهم بالأرض ووطّد لهم دعائم الاستقرار فاتّخذوا البيوت والآطام من الحجارة، وهي مرحلة متطورة من تلك الحياة التي يحياها البدو الذين يعتمدون على الرّعي ويتخذون بيوتهم من الأصواف[2]، قال قيس بن الخطيم[3]:

صَبَحْنا بها الآطام حَوْلَ مُزاحِمٍ
قَوَانِسُ أَولى بَيْضِنا كالكَواكبِ[4]

والصّداقة والصّحبة مهمّة في الحياة اليوميّة للإنسان؛ فنجد قيس بن الخطيم يخاطب صاحبه ويعبّر عن عجبه ودهشته من الصّاحب الذي تتبدّل حاله، فكلّ ما يريده من صاحبه ألّا يكون متناقضا، يقول[5]:

يا عَمرُو قَدْ أعْجَبْتني مِنْ صَاحِبٍ
حِينًا تَشُجُّ وَتَارَةً تَأسُوني[6]

أمّا الفُؤادُ فَنَاصِحٌ فيما بدا
والقَوْلُ قَوْلُ الأحْمَقِ المَجْنونِ

(١) جليل، قيس بن الخطيم حياته وشعره، ص ١٤٣.

(٢) جليل، قيس بن الخطيم حياته وشعره، ص ١٨.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٨٦.

(٤) مزاحم: أُطم، القوانس: جمع قونس وهو النّاتىء في أعلى البيضة وقال أولى لأنّهم إنّما يرون أوّل من يطلع عليهم.

(٥) ابن الخطيم، الديوان، ص ٢١٠.

(٦) أعجبتني: حملتني على العجب منك وأثرت دهشتي.

وصاحبه عجيب الشّأن متناقض الحال، فهو حينًا يرضى بما يلقيه من مقال فيوافقه ويؤيّده، ولكنّه حينًا آخر لا يرضى بالمقال فيخالفه ويخذله، فقال في ذلك[1]:

وإذا أقُومُ بخُطْبَةٍ تَرْضَى بها

وإذا أقُومُ بخُطْبَةٍ تُخْزِيني[2]

ومن العادات الاجتماعيّة التي رصدتها في شعر قيس بن الخطيم صفة الكرم، وهي من الصّفات التي افتخر بها العربيّ وهي تُؤطَّر ضمن حياة الشّاعر اليوميّة، وقد وصف لنا قيس قوة قومه وبأسهم وشدتهم وكرمهم فهم يحقّقون ثأرهم ويخفّون متعاونين فيما بينهم في مختلف الأمور، وذلك في قوله[3]:

الواتِرونَ المُدْرِكُونَ بتَبْلِهِمْ

والحَاشِدُونَ عَلى قِرَى الأضْيافِ[4]

ومن سجايا ممدوحه الكرم؛ فهو يقدّم اللبن الخالص والخمر المعتق الممزوج بالماء الصّافي؛ فيبدو أن الخمر جزء من حياتهم، يقول قيس[5]:

لَه سَجْلانِ: سَجْلٌ مِنْ صَرِيحٍ

وسَجْلُ تَرِيكَةٍ بِعَتِيقِ خَمْرِ[6]

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢١٠.

(٢) تخزيني: تخذلني وتتخلّى عنّي.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٩٣.

(٤) التّبل: التّرة والذّحل وهي صفة للقوّة والمنعة، الحاشدون: خفّوا في التعاون وأجابوا مسرعين.

(٥) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٨٦.

(٦) السَّجْل: الدّلو الضّخمة المملوءة، الصّريح: الخالص من كلّ شيء وهو اللبن إذا ذهبت رغوته، التّريكة: الماء الصّافي.

ومن مظاهر الحياة اليومية في شعر قيس بن الخطيم ماورد في شعره من بعض الألعاب الشّعبيّة في ذلك العصر كلعبة المخراق، وإن جاء ذكرها في معرِض تصويره شجاعته وتمكنه من سيفه[1]، فهو يقارع الأعداء بالسّيف وهو قادر على التّحكم به وهو غير مبال بالحرب وكأنّه طفلٌ يلعب بالمخراق .

ومما يعانيه الشّاعر في حياته ألم الفراق وانقطاع العلاقات بينه وبين محبّيه بعد أن كانوا متحابّين ومتجاورين في الدّار، مصوّرًا تلك القطيعة وشبّهها كالحبل الذي يقطع بعد أن كان يتدلّى في البئر لاستخراج الماء، فهو رابط بين الأشياء، وصوّر السّفر البعيد بالقائد الذي يفرّق بين المحبّين ويجعلهم فرقًا وأجزاءً متقطّعة مغتربين مشتتين بعد أن كانوا مجتمعين موحدين، وطالما بحث الشّاعر عن الوحدة لمجابهة ويلات الحياة، يقول قيس بن الخطيم[2]:

رَدَّ الخَلِيطُ الجِمَالَ فانْقَضَبا
وقَطّعُوا مِنْ وِصَالِكِ السَّبَبَا[3]

قَادَتْهُمُ للْفِرَاقِ شَاطِنَةٌ
فَشَطَّ وَلْيُ الحَبيبِ فاغْتَرَبا[4]

لَمْ أدْرِ قَبْلَ النّوَى بِبَيْنِهِمُ
حتّى اسْتَطارَتْ عَصَاهُمُ شُعَبَا[5]

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٨٨.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان ، ص ١٧١-١٧٣.

(٣) الخليط: المُجاور لهم في الدَّار، انقضب: انقطع، السّبب: الحبل.

(٤) شاطنة: نيّة شاطنة أي سفر بعيد، الولي: المداناة والمقاربة.

(٥) استطارت: تفرّقت وانتشرت، شُعَب: أي قطعًا أو أجزاء متفرقة.

لقد استطاع قيس بن الخطيم أن يعبّر عن مناحٍ مختلفة من حياته اليوميّة التي يحياها، والتي كانت في جلّها حياة حرب ومعارك، ويرى الباحث أنّ الشّاعر قد نجح في استخدامه للصّور التي كان مصدرها الحياة اليوميّة بالإضافة إلى ارتباطها بالمصادر الأخرى.



٣,٢ الثّقافة:

والثّقافة من أهمّ الروافد التي تمدّ الشّاعر وتزوّده بما يحتاج إليه من صور، وما يعبّر عنه من أفكار؛ فتفجّر قريحة الشّاعر أي شاعر لا تكفي لأن يقول شعراً، فلا بد من عمق أو بحر يلجأ إليه الشّاعر ويغوص فيه، فيغرف منه ما يشاء بما يتناسب والحالة التي يعيشها.

وإذا كانت الأسرة شاعرة فإنّها تؤدّي دورًا بارزًا في إنماء مواهب الشّاعر وصقلها، ولكنّ أسرة قيس بن الخطيم لم تكن تتعاطى قرض الشّعر(١). لذلك يمكن القول إنّ قيسًا استمدّ ثقافته الشّعريّة من منابع أخرى، أهمّها عادات الجاهليين في الثّأر(٢)، وما ينشأ عن ذلك من حروب، وأهمّها الحروب التي دارت رحاها بين الأوس والخزرج.

وعند البحث في ديوان الشّاعر نجد في ثقافته إيمانه بتحقّق الموت، وأن الحكم لله، يقول قيس بن الخطيم(٣):

يُحِبُّ المَرْءُ أن يَلْقَى مُنَاهُ
ويأبَى اللهُ إلاّ ما يَشاء

ومن فلسفة حتميّة الموت عند الشّاعر قيس بن الخطيم أن وجّه خطابه إلى الذي يحاول اتّقاء الموت بأنّ ذلك لا ينفعه، يقول(٤):

---

(١) جليل، قيس بن الخطيم، ص ٥٦.

(٢) انظر: ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٤٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٥٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٥٧.

فَقُــلْ للمُتّقــي عَــرَضَ المَنَايــا:

تَــوَقَّ، ولَــيْسَ يَنْفَعُــكَ اتّقــاء[1]

ومن فلسفته عن الموت عنده، قوله[2]:

أبْلِــغْ خِدَاشًــا أنّنــي مَيّــتٌ

كــلُّ امْــرِئٍ ذي حَسَــبٍ مائِــتُ

هكذا عرض قيس بن الخطيم الموت في شعره، وهي « فكرة شغلت عقل الشّاعر الجاهلي وتأمّلها تأمّلًا فلسفيًّا من حيث إنّها واقع حتميّ، ونهاية منطقيّة، وكان وقوفه عندها وصفيّا لحقيقة ماثلة أمامه بكل ما تحمل من مأساة وانقطاع وتوقّف، تستغرقها دهشة استغرابيّة لواقعيّتها وللسّرعة في الفقد»[3].

وهو يؤمن بقضاء الله، ومن ذلك قوله[4]:

قَضــى لَهــا اللهُ حــين يَخْلُقُهــا الــ

ــــخالِقُ ألاّ يُكِنَّهــا سَــدَفُ[5]

فمن قضاء الله في المرأة التي يتغزّل بها الشّاعر أنّها إذا كانت في ظلمة أبصرت ولم تسترها الظلمة، وذلك لجمالها فهي كالنّور.

---

(١) عرض: من أحداث الدهر من الموت والمرض.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢١١.

(٣) الرّفوع، خليل، المنيّة في الشّعر الجاهليّ، بحث منشور في المجلّة الأردنيّة في اللغة العربيّة وآدابها، المجلد(٣)العدد(٣)جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ/ تموز٢٠٠٧م. ص١١٣.

(٤) ابن الخطيم، الدّيوان ، ص ١٠٥.

(٥) السّدف: الظّلمة.

ومن ثقافة الشّاعر معرفته ببعض أدوات الكتابة التي وردت في شعره، كالصّحف[1]، والأديم وهو كتاب تحالفوا على ما جاء من أجل الحرب، يقول قيس[2]:

لعَمْــري لَقــدْ حالفْــتُ ذُبْيــانَ كُلَّهــا

وَعَبْســًا علــى مــا في الأديــمِ المُمَــدَّدِ[3]

ومن ثقافة الشّاعر أنّه لايتكلّم إلاّ الكلام المفيد، يقول الشّاعر[4]:

بَعْـــضُ القَـــوْلِ لَـــيْسَ لـــهُ عِيَـــاجٌ

كَمَخْـــضِ المـــاء لَـــيْسَ لـــه إتـــاءُ[5]

يَصُـــوغُ لـــكَ اللســـانُ علـــى هَـــوَاهُ

وَيَفْضَـــحُ أكثـــرَ القِيـــلِ الـــبَلاء[6]

فهو يرى أن بعض الحديث ليس فيه فائدة مثل مخض الماء ليس فيه زبد، ولايعبأ لهذا الكلام ولايلتفت إليه، وإذا لم يكن الإنسان حكيمًا في كلامه، وترك لسانه يصوغ على هواه فإنّه يوقعه في البلاء.

---

(١) انظر: ابن الخطيم، الدّيوان ، ص ١١٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٢٧.

(٣) الأديم الممدّد: الكتاب الذي مُدّ وتحالفوا على مافيه.

(٤) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٥١-١٥٣.

(٥) عياج: من عوج وعيج وهو ما عجت من كلامه بشيء أي ما باليت ولا انتفعت وما أعيج من كلامه بشيء أي ما أعبأ به ولا ألتفت إليه ، إتاء: الزّبد والإتاء الغلّة والنّماء.

(٦) البلاء: الاختبار.

وللشّاعر قدرة على التّمييز بين الضّلال والهدى، يقول قيس بن الخطيم[1]:

وإنّــي لأغْنــى النّــاسِ عَــنْ مُتكلّــفٍ

يَــرَى النّــاسَ ضُــلّالًا ولــيس بمُهْتــدي

ولذلك فالشاعر لا يمكن أن يُرشد من رجل هو أفضل منه، يقول قيس بن الخطيم في ذلك[2]:

وَذي شــيمَةٍ عَسْــراءَ تَسْــخَطُ شــيمتي

أقــولُ لــه: دَعْنــي ونفْسَــكَ أرْشِــدِ

ومن ثقافة الشّاعر معرفته بالأمراض؛ فقد صوّر بعض الرّجال وشبّههم بداء الكشح الذي ليس له شفاء، يقول[3]:

وبَعْــــضُ خَلائــــقِ الأقْــــوامِ داءٌ

كَــدَاء الكَشْــحِ لَــيْسَ لــهُ شــفاء[4]

والقارئ لديوان قيس بن الخطيم يطلّع على الثّقافة الواسعة عند الشّاعر، فهو بالإضافة إلى ما سبق يعرف أسماء الأماكن والمواضع، ومن أهمّ الأماكن المقدّسة في ذلك العصر، يقول الشّاعر[5]:

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٢٨.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٢٩.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٥٤.

(٤) الكشح: داء يصيب الإنسان في كشحه فيكوى منه.

(٥) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٧٥.

الحَمْـــــــدُ للهِ ذي البَنِيّـــــــةِ إذْ

أمْسَـــتْ دُحَـــيٌّ قَـــدْ أثْخِنَـــتْ غَلَبَـا[1]

فالبنيّة من أسماء الكعبة سمّيت بذلك لأنّ إبراهيم عليه السّلام هو الذي بناها[2]، فهو يتحدّث عن انتصار قومه على أعدائهم. ومن أسماء الكعبة أيضًا المسجد الحرام، يقول قيس بن الخطيم[3]:

واللهِ ذي المَسْـــجِدِ الحَـــرَامِ ومـــا

جُلِّـــلَ مِـــنْ يُمْنَـــةٍ لهـــا خُنُـــفُ[4]

وفي البيت السّابق تبرز ثقافة قيس بن الخطيم؛ فهو من جانب يتحدّث عن كسوة الكعبة وهي من تعظيم الجاهليين لها، ومن جانب آخر فهو يعرف بأنواع الثّياب (خنف)، وهي من الثّياب اليمانية المعروفة.

ومن المواطن الدّالّة على ثقافته براعته في استخدام الأمثال الشّعبيّة وتوظيفها في شعره، يقول قيس بن الخطيم[5]:

ظَأَرْنـــاكُمُ بـــالبِيضِ حتـــى لأنْـــتُمُ

أذَلُّ مِـــنَ السُّـــقْبانِ بَـــينَ الحلائـــبِ[6]

---

(١) البنيّة: من أسماء الكعبة.

(٢) زيتوني، عبدالغني، بحث بعنوان: الكعبة المشرّفة في الشّعر الجاهليّ، مجلّة مجمع اللغة العربيّة، العدد ٥٦ السّنة الثّالثة والعشرون، كانون الثّاني – حزيران ١٩٩٩م،ص١٢٥-١٢٦.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١١١.

(٤) يُمنة: ضرب من برود اليمن، خُنُف: جمع خنيف وهو أردأ الكتان وأراد أنّ لها جوانب حواشٍ.

(٥) ابن الخطيم، الديوان، ص ٩٤.

(٦) ظأرناكم: عطفناكم على ما نريد أي طعننا إيّاكم عطفكم على الصّلح، السّقبان: جمع سقْب وهو الذّكر من أولاد الإبل، الحلائب: جمع الحلوبة وهي التي تحلب.

فالشّاعر صوّر الحالة التي آلى إليها أعداؤه، فهو يفتخر بأنّ قومه أذلّوا الأعداء وأجبروهم على الأخذ برأي قومه، وفي المثل «الطعن يظأر»[1]. يقال: ظأرت النّاقة أظأرها ظأرًا، إذا عطفتها على ولد غيرها، يضرب في الإعطاء على المخافة، أي طعنك إيّاه يعطفه على الصلح. وإنّ هذا الذلّ والهوان الذي تعرّضوا له هو أشدّ من ذلّ السّقبان بين الحلائب، وفي المثل «أذلّ من السُقبان بين الحلائب»[2].

ولمّا كانت الحرب دائرة بين الأوس والخزرج وقيس بن الخطيم أحد شعرائها وأبطالها، فكان يردّ على خصومه بالسّيف في المعركة، وباللّسان مدافعًا ورادًّا على الشّعراء، فبرزت العديد من المناقضات بينه وبين شعراء الخزرج و أبرزهم حسّان بن ثابت.

إنّ براعة قيس بن الخطيم في الردّ على خصومه تدلّ على ثقافته الواسعة، لأنّ «النقائض تحتاج إلى ثقافة واسعة بتاريخ القبائل العربية في الجاهليّة؛ لأنّها هجاء من ناحية، وهي تاريخ من ناحية ثانية، فالشّاعر الثّاني عندما ينظم قصيدة ليردّ على الشّاعر الأوّل كأنّه يريد أن يدلّل على قدرته، ويثبت تفوّقه عليه من حيث الموسيقى والألفاظ والمعاني والبناء الفنّي بشكل عام، وكذلك تفوّقه عليه من حيث العرض»[3].

---

(١) الميدانيّ، أبو الفضل النّيسابوري، مجمع الأمثال، حقّقه، وفصّله، وضبط غرائبه، وعلّق حواشيه، محمّد محي الدّين عبدالحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١ : ٤٣٢.

(٢) الميدانيّ، مجمع الأمثال، ١ : ٢٨٤.

(٣) الحوريّ، غصّاب نهار مطر، شعر قيس بن الخطيم دراسة وتحليل، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك ١٩٩٤م، ص ١٤٣.

وبما أنّ هذه الدّراسة تبحث في الصّورة الفنّيّة عند قيس بن الخطيم ستقف عند نموذج واحد من المناقضات بين قيس بن الخطيم وحسّان بن ثابت[1]، ومن ذلك قول حسان بن ثابت[2]:

لقـــد هـــاج نفسَـــك أَشْـــجانُها

وعاودهـــا اليـــومَ أَدْيَانُهـــا

تـــذكرتَ ليلَـــى وأنّـــى بهـــا

إذا قُطّعـــتْ منـــك أَقْرَانُهـــا

وليلى التي ذكرها حسّان بن ثابت في شعره هي ليلى بنت الخطيم، أخت قيس بن الخطيم، فما كان من قيس إلّا أن ردّ عليه [3]:

أجَـــدَّ بِعَمْـــرَةَ غُنْيانُهـــا فَتَهْجُـــرَ،

أم شَـــأْنُنا شَـــانُها[4]

وإنْ تُمْـــسِ شَـــطّتْ بهـــا دارُهـــا

وَبـــاحَ لَـــكَ اليـــومَ هِجْرانُهـــا

(١) للوقوف على المناقضات التي خاضها قيس بن الخطيم مع عدد من الشّعراء انظر: محمّد، جليل، قيس بن الخطيم، ص١٠٢-١١٢. الحوري، شعر قيس بن الخطيم دراسة وتحليل، ص١٤١-١٦٤.

(٢) الأصفهانيّ، الأغاني، ص ١٢.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٦٦-٦٧.

(٤) عمرة: أمّ النّعمان بن بشير الأنصاري وهي أخت عبدالله بن رواحة، أجدَّ: أستمرّ، غنيانها: استغناؤها، أم شأننا شانها: أم هي على ما نحبّ.

ومن قصيدة حسّان بن ثابت، قوله مفتخرًا بقومه، فهم سادة يثرب، حتى إذا انقطع المطر فهم يغنون عنه[1]:

وَيَثْـــربُ تَعْلَـــمُ أنّـــا بِهـــا،

إذا قَحَـــطَ القَطْـــرُ، نُوآنُهـــا[2]

فما كان من قيس إلاّ أن صوّر قومه بأنّهم كالجبال ثابتين رادّا على حسّان بن ثابت، وذلك في قوله[3]:

وَيَثْـــرِبُ تَعْلَـــمُ أنّ النَّبِيـــ

ـــتَ راسٍ بِيَثْـــرِبَ مِيزَانُهـــا[4]

وهكذا استمرّ قيس بن الخطيم يردّ على حسّان بن ثابت ويفتخر بقومه.

وبذلك نكون قد بيّنّا جوانب متعدّدة أثرتْ في ثقافة قيس بن الخطيم، وأشرنا إلى المصادر المتنوّعة والأبيات الدّالّة على مدى سعة ثقافة قيس بن الخطيم وقدرته على استثمارها في صياغة صوره بما يتناسب مع ما تختلجه نفسه من مشاعر وأحاسيس قادته إلى تصوير مكنونات نفسه شعرًا.

---

(١) ابن ثابت الأنصاري، حسّان، الدّيوان، دار بيروت للطّباعة والنّشر، بيروت ١٩٧٨م، ص٢٥٤.

(٢) النّوآن: الواحد نوء وهو المطر.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٧٢.

(٤) النّبيت: من الأنصار من الأوس، راسٍ : ثابت.

٤,٢ الطّبيعة:

لقد استرعت الطّبيعة اهتمام قيس بن الخطيم، وأثْرت شعره بالصّور الرّائعة، تلك الصّور التي نفذ من خلالها إلى وجدان المستمع والقارئ، فكان قريبًا منهم بتعبيراته الواضحة وتشبيهاته السّهلة، التي جعلت ألفاظه ليّنة لا غرابة فيها ولا تعقيد.

وإذا تجوّلنا في حديقة قيس بن الخطيم الشّعريّة وجدناها وارفة الظّلال، متنوّعة الأشجار، وفيها أصناف شتّى من الحيوانات والطّيور البرّيّة، وذلك من خلال تشبيهاته المتتابعة في موضوعاته الشّعريّة المختلفة من غزل وفخر ومدح وهجاء وتصويره للحروب والمعارك، معتمدًا على الطّبيعة كمصدر أغنى شعره بالصّور الفنّيّة الجميلة.

ومن تأثير الطّبيعة في شعره تصويره المرأة وجمالها، فقد شبّه الحليّ على صدرها وجماله بأوساط الجراد، فهي كالجرادة بلا رأس، يقول[١]:

كَأَنَّ لَبَّاتِهَا تَبَدَّدَهَا

هَزْلَى جَرَادٍ أَجْوَازُهُ جُلُفُ[٢]

ويلوح حليها فوق نحرها متوهجًا برّاقًا فصوّره الشّاعر يتمايل على صدرها كما تلوح الثّريّا، فتضيء الثّريّا ما حولها بجمال وبهاء كالنّار في الظّلماء التي تنير الطّريق أمام المسافرين وتكشف ما حولها، يقول[٣]:

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١١٠.

(٢) تبدّدها: أي كان عن يمينها وعن شمالها، هزلى جراد: شيء يصاغ على هيئة أوساط الجراد، أجوازه: جمع جوز وهو الوسط، جُلُف: جمع جليف وهو الذي قشّر.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٢٥.

كـــأنَّ الثَّرَيّـــا فَـــوْقَ ثُغْـــرَةِ نَحْرِهـــا

تَوَقَّـــــدُ في الظَّلْمــــــاء أيَّ تَوَقُّــــــدِ

والمرأة كالدّرّة الجميلة الثّمينة التي استخرجها الغوّاص وأزال عنها الصّدف فظهر وجهها وجمالها، يقول قيس بن الخطيم[1]:

كأنّهـــــا دُرَّةٌ أحَـــــاطَ بِهــــا الــــــ

ـــغوَّاصُ، يجْلـو عـن وجههـا الصَّـدَفُ

وتعرض المرأة لهم ليروها فتظهر كأنّها ظبي جميل صغير يتجوّل وحده تحت شجر السّدر، يقول الشّاعر[2]:

تَــرَاءتْ لَنـــا يَــوْمَ الرَّحيـــلِ بمُقْلَتـــيْ

غَرِيـــرٍ بمُلْتَـــفٍّ مِـــن السِّـــدْرِ مُفْـــرَدِ

ومن معالم الطّبيعة يتوالى ابن الخطيم في تصويره للمرأة فهي لحسنها وجمالها كقطعة حرير أو كسحابة غرّاء بيضاء، يقول[3]:

كَشَـــــقِيقةِ السِّـــــيَرَاء أوْ كَغَمامـــــةٍ

بَحْرِيَّـــــةٍ في عــــــارضٍ مَجْنـــــوبِ[4]

---

(١) المرجع نفسه، ص ١١١.

(٢) المرجع نفسه، الدّيوان، ص ١٢٤.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان ، ص ٦٠.

(٤) السِّيراء: ثوب مسير فيه خطوط تعمل من القزّ كالسّيور، الغمامة: السّحابة وجمعها غمام، غرّاء: بيضاء، عارض مجنوب: أي سحابة قادمة من الجنوب.

وهي في جمالها كسحابة بيضاء، تمشي مثقلة في سيرها من كثرة مائها كأنّها تتحرك انخزالًا، يقول الشّاعر[1]:

بأحْسَنَ منها، ولا مُزْنَةٌ
دَلُوحٌ تكَشَّفُ أدْجَانُها[2]

ومن الصّور الجميلة التي وجدناها في شعر قيس بن الخطيم والتي كان مصدرها الطّبيعة، أنّ هذا الشّاعر سبّب له الحبّ العناء والغرام، وأراد أن ينسى هذا الحبّ ويسلي نفسه؛ فركب ناقة طويلة ضخمة من الإبل السّراع، يقول[3]:

فَما كانَ حُبُّ ابْنَةِ الخَزْرجِـ
ـيِّ إلّا عَناءً وإلّا غراما
فَهَلْ يُنْسِيَنْ حُبَّها جَسْرَةٌ
مِنَ النّاعِجاتِ تُباري الزِّماما[4]

وإذا تركنا عالم المرأة وتجوّلنا في حياة الحرب التي كان يحياها الشّاعر، نجد أنّ الشّاعر قد أفاد من الطّبيعة في تزينه للصّور الحربيّة، فقد استوحى صوره من عالم الحيوان والنّبات.

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٦٨.
(٢) المزنة: السّحابة البيضاء، الدّلوح: التي تجيء مثقلة، الدّجن: إلباس السّحاب.
(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢١٣.
(٤) جسرة: ناقة طويلة ضخمة، النّاعجات: الإبل السّراع وهي من الكريمة البيضاء الحسنة اللون.

ويفخر الشّاعر برجال قبيلته، ويصوّر شجاعتهم وإقدامهم وإنّهم قادرون على حماية أنفسهم، فهم في لباس أساود وجلود نمر، يقول الشّعر[1]:

مَتّــى تَلْقَــوْا رِجــالَ الأوْسِ تَلْقَــوْا

لِبَــاسَ أسَــاوِدٍ وجُلُــودَ نُمْــرِ[2]

وهم في المعركة تجدهم كأنّهم أسد، يقول قيس بن الخطيم[3]:

ألْفَيْــتَهُمْ يَــوْمَ الهِيــاجِ كــأنّهُمْ

أُسْــدٌ بِبِيشَــةَ أو بِغَــافِ رُوافِ[4]

وقومه أشدّاء يذلّون الأعداء في الحرب؛ فيصوّر الشّاعر مذلّتهم كإذلال الجمل للنّاقة الذي يلقحها على غير شهوة منها، يقول[5]:

ونُلْقِحُهــا مَبْسُــورةً ضَــرْزَنِيّةً

بأسْــيافِنا حتّــى نُــذِلَّ إباءهــا[6]

ويقبل قيس بن الخطيم بجماعة من الخيل، والخيل كما يصوّرها قيس بن الخطيم كالقطا لكثرتها وسرعتها فقد ملأت الفضاء، يقول[7]:

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٨٣.

(٢) أساود: جمع الأسود وهو العظيم من الحيّات، نُمْر: جمع نَمِر وهو ضرب معروف من السّباع.

(٣) ابن الخطيم، الديوان، ص ١٩٤.

(٤) الغاف: ضرب من الشّجر، رواف: موضع قريب من مكّة، غاف رواف: مأسدة قرب مكّة.

(٥) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٥١.

(٦) مبسورة: من بسر الفحل النّاقة إذا ضربها على غير ضبعة أي شهوة، ضرزنيّة: عاصية.

(٧) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٢٧.

وأقْبَلْتُ من أرْضِ الحجازِ بحَلْبةٍ

تَغُمُّ الفَضاءَ كالقَطا المُتَبَدِّدِ[1]

وقيس بن الخطيم شاعر فارس محارب وهو خبير بالخيل ويصوّر الفرس ويشبّه سرعتها وضمورها وخفّتها بالجرادة وهي عالية مرتفعة شديدة العدو، وهي لشدّتها كأنّها تريد أن تقطع اللجام من شدّة ضغطها عليه، يقول[2]:

أذاعتْ بِهِمْ كلُّ خَيْفانةٍ

طَرُوحٍ طَمُوحٍ تَلوكُ اللِّجاما[3]

ومن أهمّ عناصر الطّبيعة بل الحياة كلّها الماء، وقد وظّف الشّاعر صفاء الماء في شعره؛ فقد صوّر السّيف وشبّهه بالماء في الغيم أو قرون الجنادب، يقول[4]:

بِسَيْفٍ كأنَّ الماءَ في صَفَحاتِهِ

طَحَارِيرُ غَيْمٍ أو قُرونُ جَنادِبِ

ولا يهتم الشّاعر لقلّة عدد قومه فهم أشدّاء أنقياء كالإبل الصّحاح التي لايوجد فيها بعير أجرب، يقول في ذلك[5]:

---

(١) حَلْبَة: جماعة من الخيل، المتبدّد: المتفرّق جاء من هاهنا وهاهنا.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢١٤.

(٣) أذاعت بهم: أذهبتهم وقضت عليهم، خيفانة: الفرس السّريعة شبّهت بالجرادة لسرعتها وخفتها وضمورها، طروح: الفرس البعيدة العدو الشّديدة، طموح: الفرس العالية المرتفعة.

(٤) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢٢٨.

(٥) ابن الخطيم، الدّيوان ، ص ٢٢٩.

إنْ تَرَيْنـــا قُلَيِّلِـــينَ كمـــا ذِيــــ

ــــدَ عَــنِ المُجْــرِبِينَ ذَوْدٌ صِــحَاحُ[1]

وشبّه الشّاعر قومه بالسّيول القوية، يقول قيس بن الخطيم[2]:

كــأنّهُمُ إذْ وَاقَفُـــوني علـــى مِنـــىً

سُيولُ الحجـازِ ناطَحَـت عُـرُضَ البحـرِ

ومن عناصر الطّبيعة التي وظّفها قيس بن الخطيم في شعره الرّياح والسّحاب والرّعد، قال الشّاعر[3] :

مَــأوَى الضَّــرِيكِ إذا الريــاحُ تَناوَحَــتْ

ضَــخْمِ الدَّسـيعةِ مُخْلِـفٍ مِـتْلافِ[4]

فَسـقى الغــوادي رَمْسَــكَ ابــنَ مُكَـدَّمٍ

مِــنْ صَـوْبِ كــلِّ مُجَلْجِـلٍ وكّــافِ[5]

وهي من صور السّحب المرتبطة بسقيا الأحبّة الموتى، وهي «محاولة من الشّعراء لإعادة الحياة ونشر عناصرها في الأمكنة كي ينعم أهلوها بالبشر والخصب والتّجدد»[6].

---

(١) ذيد: نحي وطرد، صحاح: صفة للإبل التي ليس فيها بعير أجرب.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢٣١.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢٣٧.

(٤) الضّريك: الفقير السيء الحال، الدّسيعة: العطيّة، وضخم الدّسيعة أي كثير العطيّة، يقال ذلك للرّجل الجواد.

(٥) مجلجل: سحاب لرعده صوت، وكّاف: هطّال منهم .

(٦) الرّفوع، صورة السّحب في الشّعر الجاهلي، ص١٠٦ -١٠٧.

ولقد أبدع قيس بن الخطيم وتنوّعت صوره المعتمدة على الطّبيعة كمصدر من مصادر الصّورة الفنّيّة في شعره.

لقد أغنت مصادر الصّورة المتنوّعة شعر قيس بن الخطيم، وجعلت منه شاعرًا فحلًا مجيدًا.

وقد توقّفت في هذا الفصل على مصادر الصّورة في شعر قيس. وكان أول هذه المصادر الإنسانيّة، والإنسان هو أساس الحياة على هذه البسيطة، فاضطرب قلب الإنسان وخفق، وأحبّ وعشق، وقاتل دفاعًا عن كرامته، واستجابةً لثأره، وتعرّض بنو البشر من الأعداء للقتل والمذلّة والمهانة، ورجال قومه شجعان أشدّاء؛ هكذا توالت عنده الصّور ذات المتعلّقات الإنسانيّة.

جاء المصدر الثاني من مصادر الصّورة عنده معتمدًا على حياة الشّاعر اليوميّة؛ فهو ابن عصر الجاهليّة، عاش حياتها وتنعّم في خيرات المدينة، وغلبت على حياته الحروب والمعارك، وصوّر ذلك بأسلوب جاهليّ، دون تكلّف أو تعقيد فكانت صوره تنساب على لسانه كانسياب الماء من الجبال.

أمّا ثقافة الشّاعر فأمدته بصور ناضجة، برزت من معرفته بأنساب العرب، وتاريخهم، فكان بارعًا في مناقضاته، وصاغ حكمًا تنمّ عن خبرة وثقافة وتجربة حياة، وبرز في شعره الكثير من الأمثال ذات الموروث الشّعبيّ.

وكانت الطّبيعة آخر هذه المصادر التي تحدّثنا عنها وقد أغنت شعره بصور شربت مياه الأمطار، وأنبتت الورود والأشجار تغذّت عليها الخيل والغنم، وفوق أغصانها حلّقت الطيور من صقور وقطا وغيرها، وفي ظلالها الوارفة استظلت الظباء، وزأرت الأسود.

الفصل الثّالث

موضوعات الصّورة

لم يكن الشّعر العربيّ غثاءً كغثاء السّيل، وإنّما الشّعر كالماء الصّافي الذي أروى الأرض وأنبتت أصنافا شتى، لكلّ صنفٍ مذاقه وصورته وألقه. ولمّا كان الشّعر متعدّد المصادر - كما بيّنا في الفصل السّابق - فنجده متعدّد الموضوعات. والموضوع هو محور القصيدة الذي تدور حوله ولأجله تنشأ.

وفي هذا الفصل ستقف الدّراسة عند موضوعات الصّورة في شعر قيس بن الخطيم. ذلك الشّاعر الذي تميّز شعره بأنّه عبارة عن مقطوعات كثيرة وقصائد قصيرة ومردّ ذلك أنّ شعره كان أكثره شعر مناسبات[1]، قاله في الأيّام والوقائع بين الأوس والخزرج. وقد تعدّدت الموضوعات في شعر قيس بن الخطيم من غزل وفخر وحرب و هجاء ومدح.

(١) الحوريّ، قيس بن الخطيم، ص١٤٠.

١,٣ الغزل

إنّ موضوع الغزل من الموضوعات المهمّة التي طرقها قيس بن الخطيم في شعره. فقد صوّر المرأة في صور جميلة رائعة متنوّعة، ومن هذه الصّور أنّه صوّر المرأة وشبّهها لجمالها بالشّمس، فهي حسنة وتظهر كاصفرار السّماء وقت الطّلوع وعند الغروب. وتزداد روعة وبهاءً عندما تظهر جانبا من وجهها، فهي كالشّمس التي تغطّيها الغيوم ولا يظهر منها إلّا جانب، يقول قيس[1]:

تَبــدَّتْ لنــا كالشّــمْسِ تحــتَ غمامــةٍ

بَـدا حاجـبٌ منهـا وضَـنّتْ بحاجـبِ[2]

ويظهر له وجهها بصورة رائعة جميلةٍ فهو مشرق أصيل وهو كما يراه الشّاعر كالدّينار النّقيد، فهي صافية كصفاء الدّينار التي تمّ انتقاؤها وتخيرها من النّقود، يقول قيس بن الخطيم[3]:

وَوَجْهَــا خِلْتُــهُ لمّــا بَــدَا لــي

غَــدَاةَ البَيْــنِ دِينــاراً نَقِيــدا[4]

ويتذّكر الشّاعر حسن محبوبته وصفاءها، وتظهر له لكنّه لا يظفر بها، ولا ينال لقاءها، فيقول[5]:

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٧٩.

(٢) حاجب: جانب.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٤٦.

(٤) دينار نقيد: نقد الدراهم وانتقدها إذا أخرج منها الزّيف.

(٥) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٤١.

تَــذَكَّرَ لَيْلَــى حُسْــنَها وَصَــفاءها

وَبانَــتْ فأمْسَــى مــا يَنــالُ لِقاءهــا

ويصوّر الشّاعر جمال المرأة الجسديّ، فهي ممتلئة وجميلة، فهي تقتله لجمالها، فجيدُها ممتلئ جميل وكذلك معاصمها، يقول قيس [1]:

تَبَــدَّتْ لــي لِتَقْتُلَنــي فأبْــدَتْ

مَعَاصِــمَ فَخْمَــةً مِنْهــا وَجيــدا[2]

ويصوّر الشّاعر جمال جيدها ويشبّهه بجيد الرّئم الذي يزينه توقّد الياقوت وفصل الزبرجد، قال قيس بن الخطيم [3]:

وَجِيــدٍ كجِيــدِ الــرِّئمِ صَــافٍ، يَزِينُــهُ

تَوَقُّــدُ يــاقُوتٍ وفَصْــلِ زَبَرْجَــدِ

وهي وسط القوام بين النّساء، فلا هي غليظة ولا دقيقة (أي قليلة الّلحم)، قال الشّاعر[4]:

بَــيْنَ شُــكولِ النّســاء خِلْقَتُهــا

قَصْــدٌ، فَــلا جَبْلَــةٌ وَلا قَضَــفُ[5]

(١) المرجع نفسه، ص ١٤٦.

(٢) فخمة: ممتلئة.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٢٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٠٣.

(٥) شكول: ضروب، الجبلة: الخلقة، القضف: الدّقّة وقلّة اللحم.

وتظهر غداة الرّحيل حسنةً جميلةً؛ فصوّرها الشّاعر بصورة رائعة، يتدلّى شعرها الغزير الطّويل المُجمّع على بعضه، وشبّهه كأنّه ركام من الغيوم المتلبّدة في السّماء، يقول قيس بن الخطيم[1]:

بأحْســـنَ مِنْهـــا غَـــدَاةَ الرَّحِيـــ

ـــلِ قَامَــتْ تُرِيــكَ أثِيثــاً رُكامــا[2]

ويستمدّ الشّاعر من الحياة الحربيّة وأدواتها صوره، فهو يصوّر النّساء الجميلات الضّامرات كأنّهنّ سيوف الهند، يقول الشّاعر[3]:

كـــأنَّ بُطُـــونَهُنَّ سُـــيُوفُ هِنْـــدٍ

إذا مـــا هُـــنَّ زايَلْـــنَ الغُمُـــودا

ويتوقّف الشّاعر في غزله على كلّ متعلّقات المرأة، ومن ذلك لباسها ويعجبه من المرأة التي يتغزّل بها الجلباب الذي تفوح منه رائحة الطّيب والقرنفل والزّنجبيل حتّى كأنّها امرأة رفعتها اليهود إلى السّماء، يقول قيس بن الخطيم في ذلك[4]:

كـــأنَّ القَرَنْفُـــلَ والزَّنْجَبيـــلَ

وذاكـــي العَبِيـــرِ بِجِلْبَابِهـــا

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢١٣.

(٢) أثيث: يريد شعرها الغزير الطّويل، الرّكام: المجتمع بعضه على بعض.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٤٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٣٥.

نَمَتْهـــــا اليَهُـــــودُ إلـــــى قُبَّــــةٍ

دُوَيْــــنَ السّـــــماءِ بِمِحْرابِهـــــا[1]

وتتميّز المرأة التي يتغزّل بها قيس بن الخطيم بحلاوة المنطق، وهي ترسل الحديث دون تكلّفٍ أو تصنّع ومن غير سابق إعداد وتدبير، يقول الشّاعر[2]:

ولا يَغِـــثُّ الحَـــدِيثُ مـــا نَطَقَـــتْ

وَهْـــوَ بِفِيهـــا ذُو لَـــذَّةٍ طَـــرِفُ

تَخْزُنُـــهُ وَهْـــوَ مُشْـــتَهًى حَسَـــنٌ

وَهْـــوَ إذا مـــا تَكَلَّمَـــتْ أُنُـــفُ[3]

ويتحدّث الشّاعر عن نفسه وعن صدق حبّه وقد شفّت أحشاءه وقلبه، وهو صادق في حبّه لذلك يتمنّى الشّاعر أن يجتمع أهله وأهل أثلة في مكان قريب، يقول قيس بن الخطيم[4]:

إنّـــي لأهْـــواكِ غَيـــرَ ذي كَـــذِبٍ

قَـــدْ شُـــفَّ مِنّـــي الأحْشـــاءُ والشَّـــغَفُ[5]

(١) نمتها: رفعتها.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٠٩.

(٣) أُنُفُ: مستأنف، أي أنّها ترسل الحديث من فيض طبيعتها دون تكلّف ومن غير سابق إعداد وتدبير.

(٤) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١١٢-١١٣.

(٥) الشّغف: مُعلّق القلب.

بَـــلْ لَيْـــتَ أهْلـــي وأهْـــلَ أَثْلَـــةَ في

دارٍ قَرِيـــبٍ مِـــنْ حَيْـــثُ تَخْتَلِـــفُ[1]

أَيْهـــاتَ مَـــنْ أهلُـــهُ بِيَثْـــرِبَ قَـــدْ

أمْسَـــى وَمَـــنْ دُونَ أهلِـــهِ سَـــرِفُ[2]

وقيس بن الخطيم معجب بعمرة، حيث صوّر أثر فراقها وبُعْدَها بجفاف ضروع الإبل، وقد هزلت وسترت أفخاذها بأذنابها وذهبت سمنتها، قال الشاعر[3]:

لِعَمْـــرَةَ - إذْ قَلْبُـــهُ مُعْجَـــبٌ

فـــأنّى بِعَمْـــرَةَ أنّـــى بِهـــا

لَيَـــالٍ لَنَـــا وُدُّهَـــا مُنْصِـــبٌ

إذا الشَّـــوْلُ لَطّـــتْ بأذْنابِهـــا[4]

وراحَـــتْ حَـــدابيرَ حُـــدْبَ الظُّهـــو

رِ مُجْتَلَمَّـــا لَحْـــمُ أصْـــلابِها[5]

---

(١) أثلة : موضع قرب المدينة، وقال ياقوت كذا قيل في تفسيره والظّاهر أنّه اسم امرأة. الحمويّ، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطّبعة الثّانية ١٩٥٥ م، ١ : ٨٦.

(٢) أيهات: هيهات، سرف: اسم موضع.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٣٤-١٣٥.

(٤) مُنْصِب: مُتعب، الشّول: التي أتى على نتاجها سبعة أشهر فجفّت ضروعها، لطّت: سترت بأذنابها أفخاذها لأنّها مهازيل.

(٥) حدابير: مهازيل، حدب الظّهور: ذهبت أسنمتها، مجتلم: أي قد أخذ ما كان على ظهورها من اللحم.

ويتمنّى الشّاعر أنْ يلتقي بمحبوبته ولكن هيهات؛ فهو يصوّر لقاءه بها بأنّه لهو وهو لقاء مكذوب لأنّه يحلم بذلك، قال الشّاعر[1]:

كـــان المُنَــى بِلِقَائِهَـــا فَلَقِيتُهـــا

فَلَهَــوْتُ مِــن لَهْــوِ امــرئ مكْــذوبِ

ويرى الشّاعر أنّه أفنى دهره وأضاع أيّامه مع المرأة المحبوبة دون تحقيق أيّ فائدة فهو كمن يلعب ويلهو دون أن يعمل شيئًا يجدي عليه نفعًا، فما نال منها سوى الأحاديث، وأغضبه أنّها قاطعته بعد أن فقد ماله، وعبّر عن حالته النّفسيّة التي يعيشها بصور استوحاها من بادية العرب من خلال تصويره للإبل، يقول قيس بن الخطيم[2]:

أفْنَيْـــتُ دَهْـــرِي وطُـــولَ دَهْـــرِكِ لا

نَنْفَـــكُّ نُزْجـــي مَقالـــةً لَعِبَـــا

يَسْـلُكُ منْهـا الصَّـعودَ مَـنْ طَلَـبَ الــ

ـــقَصْدَ وتَغْـــوِي سِـــبَاعُها كَلَبَـــا

هَـــلَّا إذِ الخُـــورُ في أصِـــرَّتِها

والحَفْـــلُ في الـــدَّرّ تَقْطَـــعُ العَصَـــبا[3]

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٥٧.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٧٣-١٧٤.

(٣) الخور: جمع خوّارة وهي النّاقة غزيرة اللبن، أصرّة: جمع صرار وهو خيط يشدّ فوق ضرع النّاقة حتى لا يرضعها ولدها، الحفل: اجتماع اللبن في الضّروع وامتلاؤها به، الدّرّ: اللبن.

ويصوّر الشّاعر عتاب صاحبته هند له، وهو ما يغضبه أيضًا، يقول قيس بن الخطيم[1]:

هِنْـــدُ تَجَنّـــى الـــذُّنُوبَ عاتِبـــة

يـــا حَـــبَّ بالعاتـــبِ الـــذي عَتَبَـــا[2]

أقْسَـــمْتُ لَـــوْلا الـــذي زَعَمْـــتُ وَمَـــا

خَبّـــرْتُ قَوْمًـــا عـــن مَجْـــدِهِمْ كَـــذِبا

وَقَـــدْ أضَـــعْتِ الـــذي حَفِظْـــتُ مِـــنَ الـــ

ـــوُدّ - لَقَـــدَّمْتُ مِدْحَـــةً عَجَبـــا

فكان هذا العتاب سببًا في ضياع المودة بينهما، وفي موضع آخر يصوّر الشّاعر المرأة وهي تعاتبه بأنّه أضاع ما جمعه، قال قيس بن الخطيم[3]:

أَلَـــمَّ خَيَـــالُ لَيْلَـــى أُمِّ عَمْـــرِو

ولَـــمْ يُلْمِـــمْ بِنـــا إلاَّ لأمْـــرِ

تَقُـــولُ ظَعِينَتـــي لمّـــا اسْـــتَقلّتْ:

أَتَتْـــرُكُ مـــا جمَعْـــتَ صَـــرِيمَ سَـــحْرِ[4]

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٧٣.

(٢) تجنّى: أي تتجنّى والتّجنّي أن يدّعي عليك ذنبًا لم تفعله.

(٣) ابن الخطيم، الديوان، ص ١٨١.

(٤) صريم سحر: يئس منه.

وعندما يأرق الشّاعر تسأله عن سبب سهره، يقول قيس بن الخطيم في ذلك[1]:

تَقُــولُ ابنــةُ العَمْــرِيِّ آخِــرَ لَيْلِهــا:

عَــلامَ مُنِعْــتَ النّــوْمَ، لَيْلُــكَ ســاهرُ[2]

وبصورة رائعة يستخدم الشّاعر الحبل وهو من الأدوات المستخدمة في حياته ليعبّر عن استبداله لها وإنّه يجد غيرها، وتبدل هي حبلًا جديدًا أي تستأنف وصلًا جديدًا، يقول قيس بن الخطيم [3]:

صــرَمْتَ اليَــوْمَ حَبْلَــكَ مِــنْ كَنُــودا

لِتُبْــدِلَ حَبْلَهــا حَــبْلًا جَدِيــدا[4]

لقد رسم قيس بن الخطيم لوحته الغزليّة وأمدّها بصور رائعة، استوحاها من بيئته ومجتمعه فكانت صورًا ناضجةً نابضةً بالحياة والحركة، فقد كانت هذه الصّور مستمدّة من مصادر متنوعة أبرزها الطّبيعة وبيئة الشّاعر التي يحياها.

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢٠٨.

(٢) علام منعت من النّوم: ما منعك من النّوم ؟.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٤٥.

(٤) صرمت: قطعت، لتبدل هي حبلها حبلًا جديدًا: أي تستأنف وصلًا جديدًا.

٢,٣ الفخر والصّور الحربيّة

الفخر من أهمّ الموضوعات التي تطرّق إليها قيس بن الخطيم في شعره، فقد افتخر الشّاعر بعفّته وفروسيّته وأمانته وحفظه للسرّ، وافتخر بشجاعة قومه وبأسهم، وكانت الحرب هي الدافع الأساسي للفخر عنده فامتلأ فخره بالصّور الحربيّة المستوحاة من المعارك التي دارت رحاها بين قوم الشّاعر قبيلة الأوس وقبيلة الخزرج.

ويفتخر الشّاعر بعفّته، فلذلك لا يخافه ولا يحذر منه حتى الجار الغريب، هو لا يتغفّل جارته ولا يغرر بها ولا يخدعها، ولا يذكرها بسوء في صورة رائعة، من ذلك قوله[١]:

وهـل يَحْـذَرُ الجـارُ الغَرِيـبُ فَجِيعتـي

وخَـوْني، وبَعْـضُ المُقْـرِفينَ خـؤونُ[٢]

ومـا لَمَعَـتْ عَيْنـي لِغِـرَّةِ جـارةٍ

ولا ودَّعَـتْ بالـذَّمّ حِـينَ تَبِـينُ[٣]

ومن الصّور الجميلة التي نجدها في شعر قيس بن الخطيم افتخاره بحفظ السّرّ، فقال مصوّرًا ذلك[٤]:

وإنْ ضَـيّعَ الإخْـوانُ سِـرًّا فـإنّني

كَتـومٌ لأسْـرَارِ العَشِـيرِ أمـينُ

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٦٥.

(٢) المقرف: النّذل.

(٣) الغِرّة: الغفلة، ودّع: فارق ورحل.

(٤) ابن الخطيم، الديوان، ص ١٦٣.

فهو كاتم للسرّ حافظ له أمين عليه، وإن ضيّعه غيره. ويجعل للسّرّ عنده مكانًا خاصًّا في جوفه فهو كالعلقة السّوداء في جوفه، فقال[1]:

يَكُــونُ لَــهُ عِنْــدِي إذا مــا ضَــمِنْتُهُ
مَقَــرٌّ بِسَــوْداء الفُــؤادِ كَنِيــنُ

ومن الصّفات التي افتخر بها قيس بن الخطيم وصوّرها في شعره حفظ الأمانة، وذلك في قوله[2]:

يــا عَمْــرُو إنْ تُسْــدِ الأمانــةَ بَيْنَنــا
فأنــا الّــذي، إنْ خُنْتَهــا، يَرْعَاهــا
يــا عَمْــرُو لــيسَ أخُــو الأمانــةِ بالــذي
مــا رَابَــهُ مِــنْ خُطّــةٍ أفْشَــاها
يــا عَمْــرُو إنَّ أخــا الأمانــةِ كــاتِمٌ
لَــوْ يَسْــتَطِيعُ بِجِلْــدِهِ أخْفَاهــا

فهو يرعى الأمانة، وينبذ من يفشي السّرّ ويضيّع الأمانة، ويدعو للمحافظة عليها ولو وصل به الأمر إلى إخفائها بجلده. وجاءت هذه الصّورة بأسلوب رائع اعتمد فيه على النّداء والتّكرار.

ويفتخر الشّاعر بعفّة قومه في صورة حربيّة اعتمد فيها على السّيف وهو من الأدوات الحربيّة التي استخدموها في معاركهم وحروبهم، وصوّر قدرة السّيف على القطع بسهولة

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٦٤.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢١٥.

وذلك لحدته، ويصوّر الشّاعر قومه بعد الحرب مظهرًا عفّة الأوسيّين وإنّهم لا ينهبون لعفّتهم، ويأمرون بعضهم البعض أن يلتزموا بالعفّة، يقول قيس بن الخطيم في ذلك[1]:

بكُــلّ لَــيْنٍ مــا ضٍ ضَــرِيبَتُهُ

عَضْــبٍ إذا مــا هَزَزْتَــهُ رَسَــبا[2]

قالَــتْ بَنُــو الأوْسِ مِــنْ عفــافِهِمُ

مُــرُّوا ولا تأخُــذُوا لَهُــمْ سَــلَبا

وهم رجال يقابلونك بوجوه حسنة، وسيوفهم حادّة مبادرون إلى عمل الخيرات، فقال[3]:

حِسَــانُ الوُجُــوهِ، حِــدادُ السُّــيو

فِ، يَبْتَــدِرُ المَجْــدَ شُــبّانُها

ويفتخر الشّاعر بثباته في المعركة وثبات قومه، ويصوّر فرار قومه في المعركة بأنّه لا يكون إلّا بتحريك وجوهم تجنبًا للرّماح وأقدامهم ثابتة وبمناكبهم يصدّون الحراب وليس بظهورهم أي مقبلين في المعركة غير مدبرين، قال الشّاعر[4]:

إذا مــا فَرَرْنــا كــانَ أسْــوَا فِرَارِنــا

صُــدُودَ الخُــدودِ وازْوِرَارَ المناكــب[5]

(١) المرجع نفسه، ص ١٧٧.
(٢) ضريبة السّيف: حدّه، العضب: القاطع، رسبا: ماضٍ، سيف رسوب: أي يمضي في الضريبة ويغيب فيها.
(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٧٣.
(٤) المرجع نفسه، ص ٨٧.
(٥) أسوا: أسوأ: أقبح.

صُــــدُودَ الخُــــدُودِ والقنــــا مُتَشــــاجِرٌ

ولا تَبْــرَحُ الأقــدامُ عنــد التّضــارُبِ

ومن الصّور الحربية التي يفخر بها الشّاعر في نفسه أنّه يقدّم نفسه في الحرب فهو لا يريدها أن تبقى، وإذا مرضت نفسه فسبب ذلك توقه لقتل العدوّ فيكون شفاؤه بقتل العدوّ، وبعد قضائه لحاجة الثأر لا تبقى له حاجة بنفسه، ويصوّر الثأر غصّة في الحلق لم يتخلّ عنها إلّا بتحقيقه ثأره، قال قيس بن الخطيم [1]:

وإنّــيَ في الحــرب الضَّــرُوسِ مُوكَّــلٌ

بإقْــدامِ نَفْــسٍ مــا أُرِيــدُ بَقاءهــا[2]

إذا سَــقِمَتْ نَفْســي إلــى ذي عَــداوةٍ

فــإنّي بِنَصْــلِ السّــيْفِ بــاغٍ دواءهــا[3]

متــى يــأتِ هــذا المــوتُ لا تَبْــقَ حاجــةٌ

لنفسِــيَ إلاّ قــد قضَــيْتُ قضــاءها

وكانــت شَــجًا في الحَلْــقِ مــا لــم أبُــؤْ بهــا

فأُبْــتُ بــنفسٍ قــد أصــبتُ دواءهــا[4]

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٤٩.

(٢) الضروس: الشّديدة.

(٣) نصل السّيف: حدّ السّيف.

(٤) الشّجا: الغصص.

ويفخر الشّاعر بشجاعة قومه في يوم الرّبيع وهو من أيّامهم، وهم فرسان يحملون حرابهم بأيديهم، فقال[1]:

ونحـــنُ الفَـــوَارسُ يَـــوْمَ الرَّبِيـــ

ـــعِ، قـــد عَلمُـــوا كيـــف فُرْســـانُها

جَنَبْنـــا الحِـــرَابَ وَرَاءَ الصَّريـــ

ـــخِ حتـــى تَقَصَّـــفَ مُرَّانُهـــا[2]

ويبحث الشّاعر عن السّلم ولا يتسبّب بالحرب، ويفتخر بذلك إلّا إذا وقعت الحرب فهو يشعلها من كلّ جانب، ويحاول دفعها لكنّها تزداد تقاربـًا، ويصوّر نفسه يرحّب بها ما زال في الأمر سعة، فهو لا يخاف الحرب التي قد يكون فيها موته طالما فرضت عليه، يقول يقول قيس بن الخطيم مصوّرًا ذلك [3]:

وكُنْـتُ امْـرءًا لا أبْعـثُ الحَـرْبَ ظالمًـا

فلمّـــا أبَـــوْا أشْـــعَلْتُها كُـــلَّ جانـــبِ

أرِبْـــتُ بـــدَفْع الحَـــرْبِ مـــن رأيْتُهـــا

عـــن الـــدَّفْعِ لا تـــزدادُ غيـــرَ تقـــارُبِ[4]

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٦٩-٧٠.

(٢) جَنَبْنا: أي حملوا حرابهم بأيديهم إلى جنوبهم، الصّريخ: المستغيث، المرّان: الرّماح.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٨١.

(٤) أربت: من الأرب والإربة والمأربة: الحاجة.

فَـإذْ لَـم يَكُـنْ عَـنْ غايـةِ المـوْتِ مَـدْفعٌ

فَـأهْلاً بهـا إذْ لَـم تَـزَلْ في المَرَاحِـبِ[1]

ويفخر الشّاعر بآبائه وبمجدهم، ويصوّر نفسه بأنّه مرٌّ على الظّلمة لأنّه يتّصف بالعدل والصّبر وعدم الجور، وهو لين على الضّعفاء، ومن صفاته التي يفتخر بها اختياره لأصحابه من ذوي الرّأي والعزيمة في الخطوب، وفي ذلك يقول قيس بن الخطيم[2]:

أبـى الـذَّمَّ آبـاءٌ نَمَتْنـي جُـدُودُهُمْ

ومَجْـدي لِمَـجْدِ الصَّالِحيـنَ مُعيـن

فـذلك مـا قَـدْ تَعْلَمِـينَ، وإنّنـي

لَجَلْـدٌ علـى رَيْـبِ الخُطـوبِ مَتِيـن

أُمِـرٌّ علـى البـاغي وَيَغْلُـظُ جَـانِبي

وذُو القَصْـدِ أحْلَوْلـي لَـهُ وألِـينُ[3]

وإنّـي لأعْتَـامُ الرّجـالَ بِخُلّتـي

أُولي الـرَّأيِ في الأحْـداثِ حِينَ تحِينُ[4]

---

(١) المراحب: جمع مرحب وهو السّعة.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٦٦.

(٣) أُمرّ: من المرارة نقيض الحلو، القصْد: العدل وعدم الجور والبغي.

(٤) أعتام: أختار، الخُلّة: الصّداقة والمودّة.

ومن الصّور الحربيّة التي يفخر بها الشّاعر تصويره لأعدائه بأنّهم لا يصبرون على الحرب العوان والبأس، قال قيس بن الخطيم[1]:

فهــلّا لَــدَى الحَــرْبِ العَــوَانِ صَــبَرْتمُ

لِوَقْعَتِنــا، والبــأسُ صَــعْبُ المراكِــبِ[2]

ويفتخر الشّاعر بانتصار قومه على الأعداء فهم أسود يحمون نساءهم وأبناءهم ويخافون عليهم، أمّا أعداؤهم فقد كشفوا عن نسائهم، يقول الشّاعر[3]:

كأنّــا وقَــدْ أجْلَــوْا لَنــا عَــنْ نســائِهِمْ

أُسُــودٌ لهــا في عِــيصٍ بِيشَــةَ أشْــبُلُ[4]

ومن الصّور الحربيّة التي يفخر بها الشّاعر تصويره للأعداء وهم يهربون من المعركة ويدعون بعضهم للهرب، وقد فرّ سيّدهم بعد أن طعن برمح مثل اللهب، وقتل قادتهم وأبطالهم، ويفتخر الشّاعر بتعوّد قبيلته على الحرب، فهم لتعوّدهم على الحرب يذهبون إليها وكأنّهم ذاهبون في زيارة عاديّة، وهم يجرّون جيشًا عظيمًا، قال قيس بن الخطيم[5]:

يَرْكَــــبُ حَــــزْنَ الطّرِيــــقِ أَوَّلُهُــــمْ

يَــــدْعُو بَنَــــي عَمّــــهِ وقَــــدْ كُرِبَــــا

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٩٣.

(٢) العوان: الحرب التي قوتل فيها مرّة بعد أخرى.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٤٠.

(٤) العيص: أصول الشّجر وقيل الشّجر الملتف، بيشة: اسم موضع كثير الشّجر والأسد.

(٥) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٧٥.

غُـــودِرَ عِنْـــدَ المَكَـــرّ سَـــيّدُهُمْ
فيــــهِ سِـــــنَانٌ تَخَالُـــــهُ لَهَبَـــا

وابْنَـــا حَـــرَامٍ وثَابِـــتٌ كُشِـــفَتْ
خَيْلاهُمـــا عَنْهُمَـــا وقَـــدْ عَطِبَـــا

زُرْنَـــاهُمُ بـــالخَمِيسِ ضَـــاحِيَةً
نُزْجِـــي إلَـــى المَـــوْتِ جَحْفَـــلاً لَجِبَـــا

ويصوّر قيس بن الخطيم الحرب بجحيم ويفخر بقوّة قومه وصدقهم في الحرب؛ فهم ثابتون وإن كانت الحرب كاللهب، يقول الشّاعر[١]:

ونَصْـــدُقُ في الصَّـــبَاحِ إذا التَقَيْنَـــا
ولَـــوْ كـــانَ الصَّـــباحُ جَحِـــيمَ جَمْـــرِ[٢]

ويفخر الشّاعر بقومه فهم في عزّ وثروة ويتمنّى أن يبقوا على هذه الحالة ولا يصبحوا عساكر متفرّقة تحارب بعضها، واستخدم الشّاعر الحراب من الأدوات الحربيّة في شعره، وصوّرها في الصّدر كصورة المسمار في الباب، محذّراً قومه من التفرّق، قال قيس بن الخطيم[٣]:

فَـــلا أعْـــرِفَنْكُمْ بَعْـــدَ عِـــزٍّ وَثَـــرْوَةٍ
يُقـــالُ: ألا تِلْـــكَ النَّبيـــتُ عَســـاكِرُ[٤]

(١) المرجع نفسه، ص ١٨٤.
(٢) نصدق: نثبت عند اللقاء في الحرب.
(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢٠٩.
(٤) عساكر: جموع متفرّقة: هنا عسكر وهناك عسكر.

فــلا تَجْعَلــوا حَرْبــاتِكُمْ في نحــورِكمْ

كمــا شَــدَّ أَلْــواحَ الرِّتــاجِ المَســامِرُ[1]

ومن فخر الشّاعر بقومه أن صوّرهم يحمون الحرب ويقودون الجيش مثل الطّير في السّرعة والكثرة، يقول قيس بن الخطيم[2]:

ونحــنُ حُمــاةُ الحَــرْبِ لَيسَــتْ تَضِــيرُنا

نَسُــوقُ خَمِيسًــا كالقَطــا مُتَبَــدِّدا[3]

(١) الرّتاج: الباب وقيل الباب الكبير يكون عليه باب صغير، المسامر: المسامير.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢١٧.

(٣) الخميس: الجيش.



٣,٢ المديح:

من الموضوعات الشّعريّة التي طرقها قيس بن الخطيم في شعره المديح، ولكن ما يميّز هذا الشّاعر الحربيّ قلّة قصائد المديح فهو لم يكن يبحث عن مالٍ أو جاه.

وفي قصيدة مدحيّة يقتصر الشّاعر مدحه على خداش بن زهير ويذمّ حذيفة بن بدر؛ فيصوّر لنا أنّ المدح يكون للكريم والفارس، قال قيس بن الخطيم(١):

لأُصَرِّفَنّ سِوَى حُذَيْفَةَ مِدْحتي
لفَتى العَشِيِّ وَفارِسِ الأجْرَاف

مَنْ لا يَزَالُ يَكُبُّ كُلَّ نَقيلَةٍ
وَزْماءَ غَيْرَ مُحاوِلِ الإنْزَافِ(٢)

رَحْبُ المَبَاءةِ والجَنابِ مُوَطّأٌ
مَأوًى لكُلّ مُعَصَّبٍ مِسْوافِ(٣)

فذمّ الشّاعر حذيفة بن بدر الفزاري ومنع عنه المديح، وممدوح الشّاعر يتّصف بصفات كثيرة، فصوّره الشّاعر بصورٍ جميلة فهو ينتصر للمحتاج وهو صامد وكريم يقدّم أعظم ما عنده لكلّ محتاج.

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٩٠-١٩١.

(٢) يكبّ: يعقر، نقيلة: ناقة عظيمة، وزماء: كثيرة اللحم، الإنزاف: أن يفني ما عنده.

(٣) المعصّب: الذي قد شدّ وسطه من الجوع، مِسواف: من السَواف: الموت في النّاس والمال.

ويبدو أنّ حسن صنع خداش مع قيس بن الخطيم جعله يذكره في شعره بعد أن أصابته السّهام – ومات بعد أيام منها – ولم لا وهو الذي أعانه على تحقيق ثأره. فهو رجل فارس ذو حسن وله منزلة عظيمة عنده [1].

والممدوح عنده رمز له معادل لوجود الصّفات فيه لذلك نجده يركّز على الكرم والفروسيّة؛ فهو مهما عظم الأمر فإنّه يكفي قومه أمورهم ويحملها عنهم ويقوم بها، يقول قيس بن الخطيم في ذلك[2]:

وإذَا تَكُـــونُ عَظِيمَـــةٌ في عَـــامِرٍ

فَهُـــوَ المُـــدَافِعُ عَـــنْهُمُ والكـــافي

وقوم الممدوح يتّصفون بالقوّة والمنعة ومتحدّون لا يستطيع أحد أن ينال منهم، فصوّر الشّاعر الفرس التي تعدو بهم بأنّها طويلة تتقدّم على الخيل وتنهب الأرض نهبًا كأنّها تغرفها غرفًا من شدّة سرعتها، نجد ذلك في قوله[3]:

تَعْـــدُو بهِـــمْ في الـــرَّوْعِ كُـــلُّ طُوَالـــة

تَنْضُـــو الجِيَـــادَ، ومِنْهَـــبٍ غَـــرَّافِ[4]

ومن الصّور المدحيّة عند قيس بن الخطيم مدحه لبني خطمة، وصوّرهم بأنّهم أبطال لا يهلعون إذا سلم الأعداء، وقدّم الشّكر لمن دافع عنهم، وذلك في قوله[5]:

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢١ .

(٢) المرجع نفسه، ص ١٩٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٩٣.

(٤) الطُّوال: الطّويلة، تنضو الجياد: تتقدّمها، مِنْهَب: ينتهب العدْو انتهابًا، غرّاف: يغرف الجري.

(٥) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢٠٦.

وَمِـن بنـي خَطْمـةَ الأبطـالِ قَـدْ عَلمـوا

لا يَهْلعــــونَ إذا أعْــــدَاؤهُمْ سَـــلِمُوا

جَــــزَاهُمُ اللهُ عنّــــا أيْنَمـــا ذُكِــــرُوا

لــدى المَكــارِمِ إذْ عُــدَّتْ بهــا الــنِّعَمُ

تـــاللهِ نَكْفُـــرُهُمْ مـــا أوْرَقَـــتْ عِضَـــةٌ

وكــانَ بــالأرْضِ مــنْ أعْلامهــا عَلَــمُ[1]

وبنو خطمة قد ساقوا الرّهون، وآسوا قوم الشّاعر وبرّوا بهم وكرموا، ولا ينسى صنيعهم، يقول قيس بن الخطيم مصوّرًا ذلك[2]:

ســـاقُوا الرُّهُــونَ وَآسَــوْنا بأنْفُسِــهمْ

عِنْـدَ الشّـدائِدِ قَـدْ بَـرُّوا وقَـدْ كَرُمـوا[3]

ولَسْـــتُ ناسِـــيَهُمْ إن جاهِـــلٌ خَطِـــلٌ

خَنـا، ومـا جـدبوا عِرْضـي ومـا كلَمـوا[4]

ويمدح الشّاعر قريشًا لمساعدتها قبيلته في الحرب، ومن تصويره لهم أن جعل أصابعهم كأنّها حمر من الدماء وهي تساندهم في قتال الخزارج ومن ناصرهم، قال الشّاعر[5]:

(١) عضة: جمعها عضاه وهي الشّجرة الكبيرة أو نوع منها.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٣) آسونا بأنفسهم: من المواساة والمؤاساة المشاركة والمساهمة في المعاش والرّزق.

(٤) خنا: من الفحش، جدبوا: من جدب الشّيء: عابه وذمّه.

(٥) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٨٢.

وتَحْمِـــلُ حَـــرْبَهُمْ عَنّـــا قُـــرَيْشٌ
كـــأَنَّ بَنَـــانَهُمْ تَفْرِيـــكُ بُسْـــرِ

وتُـــدْرِكُ في الخَـــزَارِجِ كـــلَّ وِتْـــرٍ
بـــذَمِّ الكـــاهِنَيْنِ وَذَمِّ عَمْـــرِو

وفي إشارة إلى نسبه اليمانيّ يمدح أبرهة اليمانيّ وهو ملك من ملوك اليمن ونعمان وعمرًا وهما من ملوك الحيرة، ويصوّر بأنّ من يلحق بهم يُجعل له جاهـًا، قال قيس بن الخطيم [1]:

فـــإِنْ نَلْحَـــقْ بِأَبْرَهَـــةَ اليَمَـــاني
ونُعمـــانٍ يُوَجّهْنـــا وَعَمْـــرِو [2]

(١) المرجع نفسه، ص ١٨٥.

(٢) يوجّهنا: يجعل لنا جاهًا.

٤,٣ الهجاء

يطالعنا قيس بن الخطيم في العديد من الصّور الفنيّة الرّائعة خلال هجائه لأعدائه. ومن ذلك أن شبّه رؤوس الخزرجيّين بالحنظل وقت الحرب أي سهل تقطيعها، يرمز بذلك إلى قوّة قومه وبطشهم في المعركة، وذلك من قوله[1]:

كـأنَّ رُؤوس الخَـزْرَجِيّينَ - إذْ بـدتْ

كَتائبُنـا تَتْـرى مَـعَ الصُّـبْحِ - حَنظـلُ

ويحذّرهم من الاقتراب من بئره ونخله، فيقول [2]:

فَـلا تَقْرَبـوا جُـذْمانَ إنَّ حَمامَـهُ

وجَنّتَـهُ تـأذى بكـم، فتحمّلـوا[3]

ومن صور الهجاء عند قيس بن الخطيم لأعدائه من بني الخزرج تصويره لقتل السادة منهم وليس السّفلة،ومن بقي على قيد الحياة من الأعداء صوّرهم بالقرود، وذلك في قوله:[4]

أصـابَ القَتْـلُ سـاعِدَةَ بـنَ كَعْـبٍ

وَغَـادَرَ في مَجالِسِـها قُـرُودا [5]

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٣٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٨ .

(٣) جذمان: نخل.

(٤) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٤٨.

(٥) ساعدة بن كعب: من قادة الخزرج أعداء الشّاعر.

واستمرّ قيس بن الخطيم في هجائه للأعداء، وصوّر حالتهم في الحرب وكيف أعملت بني الأوس فيهم السّيوف، فقال[1]:

فَمـــا أبْقَـــتْ سُـــيوفُ الأوْسِ مِـــنْكُمْ
وحَـــــدُّ ظُباتِهـــــا إلاّ شَـــــرِيدا
فَلَـــنْ نَنْفَـــكَّ نَقْتُـــلُ مـــا حَيِينـــا
رِجـــالَكُمُ ونَجْعَلُكُـــــمْ عَبِيـــــدا

وقد تعهّد الشّاعر في البيت الثّاني بمواصلة الحرب وإذلال الأعداء. ويدعوهم الشّاعر إلى أخذ العبرة والعظة، فكلّما صدر أمر يشقّ عليهم، فيقول قيس[2]:

ألا مَـــنْ مُبْلِـــغٌ عنّـــي كُعَيبـــًا
فَهَـــلْ يَنْهـــاكَ لُبُّـــكَ أنْ تَعُـــودا
أراني كُلّمـــــا صَـــــدَّرْتُ أمْـــرًا
بنـــي الرَّقْعـــاء جَشّـــمَكُمْ صَـــعُودا[3]

وقد لاقى بني دحي وعوف الشّقاء من الأوسيين، فقال[4]:

ولاقـــى الشَّـــقاءَ لـــدَى حَرْبِنـــا
دُحَـــيٌّ وَعَـــوْفٌ وإخْوانُهـــا

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٤٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٤٩.

(٣) الرّقعاء: الحمقاء، الصّعود: العقبة الشّاقة.

(٤) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٧١.

رَدَدْنَــــا الكَتِيبــــةَ مَفْلولــــةً

بِهــــا أَفْنُهَــــا وَبِهــــا ذَانُهَــــا[1]

ومن صور الهجاء التي أطلّ علينا بها قيس بن الخطيم تصويره للأعداء بأنّهم يساقون كما تساق الإبل عند عرضها للبيع، ولمّا طلب منهم سيّدهم أن يصمدوا في المعركة وجدهم قد تفرّقوا فرقًا صغيرة مشتتين، فبذلك يقول[2]:

تَسُــــوقُ أُخْــــرَاهُمُ أوائلَهُــــمْ

كمَــا يَسُــوقُ المُعَــارِضُ الجَلَبَــا

لمّــا دَعَــاهُمْ لِلمَــوْتِ سَــيّدُهُمْ

ثَابَــتْ إلــيهمْ جُمُــوعُهُمْ عُصَــبَا

ومن الهجاء عند قيس بن الخطيم أن أرسل إلى الخزرجيين رسالة يذكّرهم بالحالة التي آلوا إليها بعد المعركة، وصوّرهم بأنّهم أصبحوا فريقين: فريق قتل وفريق هرب، فقال[3]:

ألا أبْلِغــا ذَا الخَزْرَجِــيَّ رِســالَةً

رِسَــالَةَ حَــقٍّ لَسْــتُ فِيهــا مُفَنَّــدا

فإنّــا تَرَكْنــاكُمْ لــدَى الــرَّدْمِ غُــدوةً

فَــرِيقَيْنِ: مَقْتُــولاً بِــهِ ومُطَــرَّدا

(١) أفنها: الأفن: نقص العقل وهو عيب وكذلك ذانها.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٧٨.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢١٦.

ويتابع قيس هجاءه لأعدائه مفتخرًا بقومه، فكل واحد من قومه فارس قادر على حماية الحرم والأهل، فقال[1]:

صَبَحْناكُمُ مِنَّا بِهِ كُلَّ فارِسٍ

كَرِيمِ النَّثا يَحْمي الذِّمارَ لِيُحْمَدا[2]

أَتَذْكُرُ أمْرًا لَمْ تَنَلْهُ، وإنّما

تَناوَلَ سَجْلَ الحَرْبِ مَنْ كان أنجدا

فَذُقْ غِبَّ ما قَدَّمتَ، إنّي أنا الذي

صَبَحْتُكُمُ فيهِ السِّمامَ بِبُرْجُدَا[3]

(١) المرجع نفسه، ص ٢١٦-٢١٧.

(٢) صبحناكم: أي أتيناكم صباحًا وأغرنا عليكم، النّثا: ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيء، الذّمار: الحرم والأهل وكل ما يلزمك حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه.

(٣) غِبّ ما قدمت: مغبّة وعاقبة، السّمام: جمع السّم القاتل، بُرجد: طريق بين اليمامة والبحرين.

٥,٣ الحكمة:

والحكمة من الموضوعات التي تناولها قيس بن الخطيم في شعره، ومنها تظهر تجربة الشّاعر وخبرته بالحياة، فطالعنا بالعديد من الحكم بل اقتصرت بعض مقطوعاته الشّعريّة على الحكمة.

ومن الحكم في شعره أنّه صوّر المال والأخلاق بالشّيء المعار، ويطلب من الإنسان استغلالها في الخير والمعروف ما استطاع، فقال قيس بن الخطيم[١]:

فما المالُ والأخلاقُ إلاّ مُعَارَةٌ

فما اسْطَعْتَ من مَعْرُوفها فتَزوَّدِ

ويصوّر قيس بن الخطيم الحقّ أنّه شيء يرفض أن يقوده الباطل، كما صوّره بأنّه قادر على أن يقود الجبال الرّاسيات، يقول في ذلك[٢]:

مَتى ما تَقُدْ بالباطلِ الحقَّ يأبَهُ

وإنْ قُدْتَ بالحقّ الرَّواسيَ تَنْقَدِ

ويصوّر الشّاعر الذي لا يأتي الأمر من طريقه الصحيح كالذي يدخل البيت من غير بابه فيضلّ، أمّا من يدخل من الباب يهتد، وذلك في قوله[٣]:

مَتى ما أَتَيْتَ الأمْرَ مِنْ غَير بابهِ

ضَلِلْتَ وإنْ تَدخُلْ من الباب تهتدِ

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٣٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٣٠.

ومن الحكم التي جاءت في شعر قيس بن الخطيم دعوته لعدم البطر، وقد أوردها في صورة رائعة؛ فهو يدعو للنظر والعبرة من الذين تبدّلت حالهم من غنًى إلى فقر ومن سعة ورغد في العيش إلى ضيق وضنك، وذلك في قوله [1]:

وكائنْ رأيْنا مِنْ أُناسٍ ذَوي غِنىً
وجِدَّةَ عَيْشٍ أصْبَحوا قدْ تبَدَّلوا

فإنْ تكُ قد أُوتيتَ مالاً فلا تكُنْ
بهِ بَطِراً والحالُ قَدْ تَتَحوَّلُ

ومن الصّور الجميلة التي نقرأها في شعر قيس بن الخطيم في موضوع الحكمة، إيمانه بحتميّة الموت فالإنسان الغافل الذي لم يعش البؤس (الحزن والشّدّة والمصائب) في حياته سوف يأتيه يومًا القضاء المحتوم (الموت) على شكل جمل ينيخُ بساحته، وتأتيه المصائب وأشار لها ببنات الدّهر وتحوّل حيلته إلى حزن وكرب مثلما يتشقّق الإناء، فقال [2]:

مَنْ يَكُ غافلاً لَمْ يَلْقَ بُؤساً
يُنِخْ يَوْماً بسَاحَتِهِ القَضَاءُ

تَنَاوَلُهُ بَنَاتُ الدَّهْرِ حَتّى
تُثَلِّمَهُ كمَا انْثَلَمَ الإنَاء

(١) المرجع نفسه، ص ١٣٩.
(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٥٦.

ومن الحكم عنده التّبديل والتّغير والانفراج بعد الشّدّة، فإنّ لا شيء يدوم على حال، فالشّدائد إذا نزلت يعقبها الخير ورخاء العيش وسعته، وفي هذا دعوة إلى الصّبر، كقوله [1]:

وكُلُّ شَديدَةٍ نَزَلَتْ بحَيٍّ

سَيأتي بَعْدَ شِدَّتها رَخاء

والغنى عند قيس بن الخطيم لا يأتي من الحرص ولكنّه يأتي من عزّة النّفس وتعفّفها، وفقر النّفس وشقاؤها يأتي من النّفس التي لا يوجد عندها عزّة وكرامة، قال[2]:

فَلا يُعْطَي الحَرِيصُ غِنًى لِحرْصٍ

وقَدْ يَنمي لِذي العَجْزِ الثَّراء[3]

غَنِيُّ النّفْسِ، ما اسْتَغْنى، غَنِيٌّ

وفَقْرُ النّفْسِ، ما عَمِرَتْ، شَقاء

ويرى قيس بن الخطيم أنّ السرّ إذا تجاوز الاثنين انتشر، وذلك في قوله[4]:

إذَا جَاوَزَ الإثْنَيْنِ سِرٌّ فإنّهُ

بِنَشْرٍ وتَكْثيرِ الحَديثِ قَمِينُ

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٥٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٥٧-١٥٨.

(٣) ينمي: من النّماء وهو الزّيادة.

(٤) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٦٢.

وفي نفس المعنى يقول[1]:

فـــلا تَمْـــذُلْ بِســـرّكَ، كـــلُّ سِـــرٍّ

إذا مـــا جَـــاوَزَ الإثْنَـــيْنِ، فاشِـــي[2]

لقد توقّفت الدّراسة في هذا الفصل على موضوعات الصّورة عند قيس بن الخطيم، ومن هذه الموضوعات الغزل، وما فيه من إلفة النّساء، وتنوّع الشاعر في تغزله فصوّر المرأة التي يتغزل بها بصور متعدّدة فهي كالشّمس وكالرئم، وصوّر مشيتها وحركاتها وحلاوة منطقها، وقد تعدّدت النساء اللاتي تغزّل فيهنّ قيس، فيرى نصرت عبدالرّحمن أنّ المرأة عند قيس بن الخطيم رمز[3].

وفي فخره توقّف الشّاعر على ما اتّصف به من أمانة وعفّة ووصف بها قومه، وقد افتخر الشّاعر بشجاعته وبطولات قومه في المعارك، في صور حربيّة مختلفة.

أمّا المديح فقلّ عنده لأنّه لم يكن بحاجة إلى مال أو جاه، فكان مديحه من ردّ المعروف إلى من ناصره في ثأره وناصر قبيلته في حروبهم.

وكان هجاؤه لأعدائه بصور تدلّ على ما تعرّض له الأعداء من مذلّة ومهانة على يد قبيلة الأوس قبيلة الشّاعر. وللشّاعر صور رائعة في الحكمة، في جوانب متعدّدة تدلّ على خبرته واستفادته من تجارب الحياة.

(١) المرجع نفسه، ص ٢٣٥.

(٢) مذل: قلق بسرّه فأفشاه.

(٣) عبدالرّحمن، نصرت، الصّورة الفنيّة في الشّعر الجاهليّ في ضوء النّقد الحديث، ص ١٢٧.

الفصل الرّابع

الصّور البيانيّة والبديعيّة

في هذا الفصل وهو الجزء الأخير من الدّراسة سنتوقّف على أهمّ الصّور البيانيّة والبديعيّة في شعر قيس بن الخطيم وأكثرها ورودًا في شعره. وتندرج هذه الفنون المختلفة تحت باب البلاغة، وهو أساس الفصاحة، والبلاغة من أهمّ الصّفات التي تميّز بها العرب عن سائر الأقوام الأخرى، ودليل ذلك نزول القرآن الكريم الذي تميّز بالفصاحة والبلاغة بلغة العرب، متحدّيهم فيها. ونشير هنا إلى أنّ البلاغة هي محور الصّورة الفنّيّة، أو على الأقل أنّ بعض النقّاد عرّفوا الصّورة معتمدين في توضيحهم لمفهومها على الفنون البلاغيّة المتعدّدة.

ولمّا كانت هذه الدّراسة عن الصّورة الفنيّة في شعر قيس بن الخطيم، فستقف على ما في هذا الشّعر من تشبيهات وكنايات واستعارات ضمن علم البيان.

أمّا علم البديع الذي لا يتعدّى تزيين الألفاظ أو المعاني بألوان بديعيّة من الجمال اللفظيّ أو المعنويّ، سيكون محور الجزء الثّاني من هذا الفصل. وسنقف فيه على ما في هذا الشّعر من طباق كمحسّن معنويّ، وجناس كمحسّن لفظيّ.

١,٤ الصّور البيانيّة

١,١,٤ التّشبيه

يقع موضوع التشبيه تحت باب علم البيان، وهو من الفنون البلاغيّة التي زخر بها الشّعر العربيّ، ويمكن تعريفه بأنّه الدّلالة على مشاركة أمر لأمر، ونستطيع القول: بأنّه إلحاق أمر بأمر بأداة التشبيه لجامع بينهما[١].

وللتشبيه أركان يتكون منها: المشبّه، والمشبّه به، وأداة التّشبيه، ووجه الشّبه. ويمكن حذف أداة التّشبيه، أو وجه الشّبه، أو كليهما لكن لا يجوز حذف المشبّه، أو المشبّه به، لأنّه في حالة الحذف هذه يخرج الأسلوب من أسلوب التّشبيه إلى موضوع آخر يسمّى الاستعارة، والتي سنقف عندها أيضًا في هذا الفصل.

وعند البحث في صفحات ديوان قيس بن الخطيم، نجده قد عجّ بالتّشبيهات المتنوّعة، ونجد أنّ التشبيه هو أكثر الفنون البلاغيّة ورودًا في شعره.

وتميّز موضوع التّشبيه عند قيس بن الخطيم بأنّه ورد ضمن موضوعين رئيسين في شعره من حيث مصادر هذه التشبيهات، يمثّل الموضوع الأوّل الصّور الغزليّة وما يمثّله عالم المرأة من حبّ، ووصف، وجمال، يختلط في اللذة والذّوق.

والموضوع الثّاني يمثّل عالم الحرب، وما فيه من صور تمثّل الشّجاعة، والقوّة، والبطش، تختلط بالدّماء، والجراح وطعن القنا وقطع الأشجار.

---

(١) عبّاس، فضل حسن، البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع، دار الفرقان للنّشر والتّوزيع، الطّبعة العاشرة، ٢٠٠٥م، ص ١٧.

ومن التشبيهات ذات الطّابع الحربيّ أنّ الشّاعر شبّه الفارس بالليث، في قوله[1]:

فلمّـــــا اسْـــــتَقَلَّ كَلَيْـــــثِ الغَرِيــــــ

ـــــــفِ زَانَ الكَتِيبـــــةَ أعْوَانُهـــــا[2]

فالمشبّه في هذا الموضع هو الضّمير المستتر (هو) في الفعل (استقلّ) العائد على الفارس، والمشبّه به هو الليث، وأدة التّشبيه الكاف في (كليث)، وحذف وجه الشّبه من هذا الأسلوب، ويسمّى التّشبيه في هذه الحالة تشبيهًا مرسلًا مجملًا. ولمّا كان تشبيه الفارس بالليث فالجامع بينهما القوّة والشّجاعة، فالفارس يستبسل في الدّفاع عن نفسه وقبيلته وكتيبته التي يقاتل معها، كذلك الليث في حماه الذي لا يسمح لأحد بالاقتراب منه.

ومن أرض المعركة يصوّر الشّاعر حال الأعداء، والمصير الذي آلوا إليه، فهم بين أسير وهارب من أرض المعركة، كالجماعات من الخيل والإبل والغنم التي تجلب إلى السّوق وتعرض للبيع. فالمشبّه هنا رجال الأعداء والمشبّه به الجلائب من خيل وغنم وغيرها، وهذا توضيح من الشّاعر للحالة الصّعبة والبائسة التي وقع فيها الأعداء، فقال قيس بن الخطيم[3]:

فَلَيْـــتَ سُـــوَيْدًا راءَ مَـــن جُـــرَّ مِـــنْكُمُ

ومَـــن فَـــرَّ إذْ يحْـــدُونَهُمْ كالجلائـــبِ[4]

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٧٠.

(٢) استقلّ: قام ونهض وارتفع، الغريف: الأجمة وكلّ شجر ملتفّ.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٩٥.

(٤) راء: رأى، الجلائب: الجماعات من الخيل والإبل والغنم والنّاس واحدتها جلوبة: وهي ما جلب من شيء أي أتي به إلى السّوق وعرضه للبيع.

وفي موضع آخر يشبّه الشّاعر رجال قومه عندما يذهبون للحرب بجرب الجمال، فذكر المشبّه والمشبّه به وأداة التّشبيه، وحذف وجه الشّبه في تشبيه مرسل مجمل، ويمكن تقدير وجه الشّبه بأنّه تنفير الأعداء وعدم الاقتراب منه ومن قومه؛ فالأعداء لا يجرؤون على الاقتراب منه ومن قومه خشية القتل، كما أنّ النّاس لا تجرؤ على الاقتراب من الجمال الجرب خوف العدوى والمرض، فيقول[1]:

مَشَــــيْنا إليهـــا كَجُــــرْبِ الجِمـــا

لِ بــــاقي الهِنـــــاء بأقْرابِهـــــا[2]

وعن شجاعة رجال قومه، يصف الشّاعر قدرتهم وبسالتهم وشجاعتهم في حماية حصونهم، وما تحويه من مالهم ومتاعهم، ويشبّههم بالغربان، التي هي لكثرتها وتتابعها في حركتها كعرف الفرس، يقول الشّاعر[3]:

لَنـــا مَـــعَ آجَامِنـــا وحَوْزَتِنـــا

بَـــيْنَ ذُرَاهـــا مَخـــارِفٌ دُلُـــفُ[4]

يَـــذُبُّ عـــنْهُنَّ ســـامِرٌ مَصِـــعٌ

سُـــودَ الغَواشـــي كأنّهـــا عُـــرُفُ[5]

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٣٦.

(٢) الأقراب: جمع قُرْب وهي الخاصرة.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١١٨-١١٩.

(٤) آجام: الحصون، والأُجُم: كل بيت مربّع، حوزة: كل شيء من حيّزه، ذرى: أعالي، مخارف دلف: أي نخل يخترف منه، والاختراف: لقط ثمر النّخل، دلف: دَلَف القوم: إذا نهضوا إلى مايريدون.

(٥) سود الغواشي: الغربان، عُرُف: عرف الفرس، مصعٌ: المقاتل بالسّيف.

فالمشبّه المدافع عن الحصون، والمشبّه به الغربان، كما جعل الغربان مشبّهًا وعرف الفرس مشبّهًا به. فقيس بن الخطيم يروم من هذا التشبيه أن يدلّ على منعة حصونهم، وقدرة بني قومه على حمايتها، والتّصدّي لكل من يحاول الاقتراب منها.

ومن الأدوات الحربيّة التي استخدمها الشّاعر في صوره الرّماح، فقد عبّر الشّاعر عن واقع المعركة بصورة حقيقيّة من اختلاج الرّماح للأجساد وانتزاعها ثمّ راح الشّاعر بخياله وجال في بيئة الحياة التي يعيشها، وأخذ منها صورة استخراج الماء من البئر عن طريق الدّلاء المربوطة بالحبال، فكان الجامع بين الصّورتين صورة شيء طويل يوجد في رأسه شيء مدبّب يتحرّك في ذهاب وإياب ودخول وخروج في صورة تمثيليّة رائعة، يقول الشّاعر[1]:

تَـــراهُنَّ يُخْلَجْـــنَ خَلْـــجَ الـــدِّلا

ءِ تَخْـــتَلِجُ النَّـــزْعَ أَشْـــطانُها[2]

وفي موضع آخر يصوّر الشّاعر حركة الرّماح، وتكسّرها في أرض المعركة، نتيجة للطعن، واستخراجها من الأجساد ليطعن بها مرّة أخرى، وفي حرفيّة من الشّاعر رسم صورته هذه بأسلوب التّشبيه التّمثيليّ، فهو شبّه حركة الرّماح من طعن وتكسير بأيدي وأجساد الرّجال في أرض المعركة، بصورة النّساء وهي تقوم بتقشير العسيب، فتأخذ المرأة العسيب وتقشّره بسكينها ثم تلقيه إلى امرأة أخرى فتقشّره وتتذرّعه وتلقي ماتبقى إلى غيرها، في حركة دؤوبة مستمرة، ونشاط متميّز، وهي صورة تدلّ على بعض أنواع الحرف في ذلك الزّمان، كما أنّ لها دلالة واضحة في اتّصاف العرب ببعض العادات

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٧٠.

(٢) الخلج: الجذب والناقة الخلوج إذا فصل عنها ولده وجذب إمّا بنحر وإمّا بموت، الأشطان: الحبال.

الحسنة، فالتّعاون بين أفراد القبيلة موجود سواء كان في أرض المعركة أو في حياتهم اليوميّة، وأعمالهم المتعدّدة، يقول الشّاعر[1]:

تَــرَى قِصَــدَ المُــرَّانِ تَهْــوِي كأنّهــا
تَــذَرُّعُ خِرْصــانٍ بأيــدي الشَّــواطبِ[2]

وفي صورة معنويّة نجد الشّاعر يصوّر أنّه في حال عدم مجالدته هو وبني قومه للأعداء، بصورة شاربي الخمر، وهي صورة تعبّر عن شدّة الشّاعر وشدّة قومه، ومجابهتهم للأعداء وصدّهم، قال قيس بن الخطيم[3]:

فلســتُ لِحَاصِــنٍ إنْ لَــمْ تَرَوْنَــا
نُجَالِــدُكُمْ كأنّــا شَــرْبُ خَمْــرِ[4]

وهي صورة يفتخر فيها الشّاعر بشرف نسبه. ومن البيئة الحربيّة أيضًا يطلّ علينا الشّاعر بلوحة تمثيليّة أخرى، يفتخر بها بالنّصر على أعدائه، ويهجوهم بصورة مذلّة مهينة. فالشّاعر شبّه حال الأعداء وصورتهم، وهم يقتلون في أرض المعركة بحال الغنم

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٨٥.

(٢) قِصد: كِسر، المُرّان: الرّماح، التّذرّع: قدر ذراع، الشّطبة، السّعفة الطّويلة، الشّاطبة: المرأة التي تقشر العسيب ثم تلقيه إلى المنقّية فتأخذ كل شيء عليه بسكينة حتى تتركه رقيقًا ثم تلقيه المنقّية إلى الشّاطبة ثانية فتشطبه على ذراعها وتتذرعه.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٨٢.

(٤) حاصن: المرأة العفيفة.

السّليمة السّمينة وهي تذبح؛ فهم يذبحون أعداءً أشدّاء، وهذا يدلّ على شجاعة قيس وشجاعة قومه وقوّتهم، وذلك في قوله[1]:

أبَنــي دُحَــيٍّ، والخَنــا مِــنْ شــأنكمْ،

أنّــى يَكــونُ الفَخْــرُ للمَغْلــوبِ

وكَــأنّهُمْ في الحَــرْبِ إذ تَعْلــوهُمُ

غَــنَمٌ تُعَبِّطُهــا غُــوَاةُ شُــرُوبِ[2]

إنّ فروسيّة قيس بن الخطيم، وبطولاته في المعارك، جعلت منه مصوّرًا متقنًا للصّورة الشّعريّة الحربية، يقف في ساحة الوغى يجالد الأعداء، وإذا ما انتهى من حربه، يطالعنا بوصف دقيق لتلك المعركة وأدواتها، ومن ذلك وصفه للباس المحارب، ومنها الدّرع، في قوله[3]:

مُضَــاعَفَةٌ يَغْشَــى الأنامــلَ فَضْــلُها

كــأنَّ قَتيرَيْهــا عُيُــونُ الجنــادبِ[4]

فشبّه الشّاعر رؤوس المسامير في الدّرع، وصوّرها وكأنّها عيون الجنادب، في صورة وصفيّة تدلّ على مدى معرفة الشّاعر بأدوات الحرب.

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٦٠.

(٢) يعبّطها: عبط الذّبيحة أي نحرها من غير داء ولا كسر وهي سمينة فتيّة.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٨٢.

(٤) القتير: رؤوس المسامير لحلق الدّروع.

وهكذا توالت التّشبيهات التي استمدّت وقودها من أرض المعركة، وما فيها من بطولات وفروسيّة، كان الشّاعر نبراسها، وعكست هذه الصّور نشوة النّصر والفرح. وعلى النّقيض من ذلك تمامًا، فقد أورد قيس بن الخطيم صورًا شعريّة، تعبّر عن نفسيّة متعبة، طالما عانى منها العربيّ في تلك العصور، فصوّر الشّاعر الحرب بالنّار التي لا تبقي ولا تذر.

وإذا تركنا الحرب وصخبها، وجلنا مرّةً أخرى في شعر قيس بن الخطيم، نجده إنسانًا له مشاعره وأحاسيسه، ووجدنا عذوبة في شعره، وقد أبدع الشّاعر في تشبيهاته التي استمدّها من عالم الحبّ والمرأة.

ومن هذه الصّور يبدو التّشبيه التّمثيليّ جليًّا حين أبدع الشّاعر صورة من أجمل الصّور حين صوّر المرأة وهي تغطي جانبًا من وجهها وتظهر الجانب الآخر فتجذب الأنظار، وجاء بصورة أخرى يشبّهها بها وهي صورة الشّمس التي يظهر بعضها ويستر بعضها الآخر خلف الغمام، فقال[1]:

تَبـدَّتْ لنـا كالشّـمْسِ تحـتَ غمامـةٍ

بَـدا حاجـبٌ منهـا وضَـنّتْ بحاجـبِ

وفي موضع آخر يصوّرها الشّاعر بصور رائعة؛ فهي لجمالها يشبّهها بالبرد، وبالشّقيقة السيراء وبالغمامة البحريّة[2]. وقد أبدع لها تشبيهات مختلفة حسيّة وبصريّة موظفًا جمال الطّبيعة ورونقها لوصف المرأة أجمل الصّفات، أوردت معظمها في

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٧٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٦٠.

موضوع الغزل في الفصل السّابق من هذه الدّراسة. ونوّع في استخدامه لأدوات التشبيه، إلّا أنّنا نجده استخدم أداتي الكاف وكأنّ أكثر من غيرهما من الأدوات في مجمل شعره.

ويمكن القول إنّ تشبيهات قيس بن الخطيم جميعها حسيّة مقتبسة من عناصر الطّبيعة المرئيّة التي يبصرها الإنسان؛ لأنّ الشّاعر الجاهليّ شاعر فيافي وشاعر طبيعة متنوّعة المناظر، يقتبس منها تشبيهاته الجميلة[1].

٢,١,٤ الاستعارة:

الاستعارة هي تشبيه حذف أحد طرفيه، وهي أن نستعير لفظًا من معنى لمعنى آخر له صلة به[2]؛ فهي تعبير يقوم على التّشبيه؛ لذلك عدّ التّشبيه هو الأساس أمّا الاستعارة فهي فرع له، فإذا أردت « تشبيه الشيء بالشيء، فتدع أن تفصح بالتّشبيه وتظهره، وتجيء إلى اسم المشبّه به فتعيره المشبّه وتجريه عليه»[3].

وتعمل الاستعارة على تجسيم الأشياء وتشخيصها، وخلق صورة خياليّة باستعارة شيء لشيء آخر ليس من طبعه؛ لتقرّب المعنى إلى ذهن السّامع وتثير خياله، فيأنس بها، «والاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار في الأصل، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها، وملاكها تقريب الشّبه ومناسبة المستعار له للمستعار منه، وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة، ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر»[4].

---

(١) الحوريّ، شعر قيس بن الخطيم، السّابق، ص ٢٠٦.

(٢) عبّاس، البلاغة فنونها وأفنانها، السّابق، ص١٦٣.

(٣) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمّد رضوان الدّاية، فايز الدّاية، دار الفكر، دمشق، الطّبعة الأولى، ٢٠٠٧م، ص ١١١.

(٤) الجرجانيّ، علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، علي محمّد البجاويّ، دار القلم، بيروت، لبنان، ص٤١.

والاستعارة من المجاز اللغويّ، وهو ما استعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي. والعلاقة بين المعنى الحقيقي والمجازي قد تكون المشابهة وقد تكون غيرها[1].

وتقسم الاستعارة إلى قسمين: تصريحية وهي ما صرّح فيها بلفظ المشبّه به، ومكنيّة وهي ما حذف فيها المشبّه به ورمز له بشيء من لوازمه[2].

لقد نوّع قيس بن الخطيم في تزيين شعره بالفنون البلاغيّة، ومنها الاستعارة، ومن عالم الطّير استعار كلمة الصّقر، وقد استخدمها الشّاعر ليعبّر عن قوّته وقوّة قومه وشدّتهم؛ فهم قادرون على قتل كلّ صقر، فلا يقدر على قتل الصّقر إلّا من هو أقوى منه، يقول الشّاعر[3]:

وإنْ تَغْـــدُو بِنـــا غَطَفـــانُ نُـــرْدِفْ

نِسَـــاءَهُمُ ونَقْتُـــلْ كُـــلَّ صَـــقْرِ

وجاء حديثه عن الأعداء وقتلهم، وسبي النّساء قرينة منعت كلمة صقر من أن تأتي بمعناها الحقيقي، وهو نوع من الطّيور الجارحة. فحذف المشبّه وذكر المشبّه به على سبيل الاستعارة التّصريحيّة.

تمثّل النّاقة عند العربي عالمًا خاصّا بها، فهي تؤنس وحشته في الصّحراء، وكانت تعبر به المفاوز والفيافي؛ فكان لها حيّزٌ واسعٌ عند شعراء العربيّة، وأمدّت صورهم الشّعريّة بكثير من اللوحات الجميلة.

---

(١) الجارم، عليّ ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، دار المعارف،١٩٦٩م، ص ٧١.

(٢) الجارم ، البلاغة الواضحة، السّابق، ص ٧٧.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٨٦.

ومن الصّور الاستعاريّة عند قيس بن الخطيم التي كانت النّاقة أحد أركانها، أن صوّر إذلاله للعدو في الحرب، بإذلال الجمل للناقة، فذكر المشبّه به صورة الإذلال (نلقحها مبسورة ضرزنيّة) وحذف المشبّه، مع وجود قرينة تمنع أن تكون عملية الإلقاح حقيقية، وهي أنّه قال: نلقحها بأسيافنا، قال الشّاعر[1]:

ونُلْقِحُهــــا مَبْسُــــورةً ضَــــرْزَنِيّةً

بأسْــــيافِنا حتّـــى نُـــذِلَّ إباءهـــا

واستعار الشّاعر صفة الخيفانة التي تتصف بها الجرادة ووصف بها فرسه، لما تمتاز به من خفّة حركة وضمور وسرعة في المعركة[2].

ومن الاستعارات المكنيّة، وهي التي حذف فيها المشبّه به وذكر المشبّه (النّار تأكل الحطبا)؛ فقد صوّر قيس بن الخطيم النّار التي تلتهم الحطب وغيره، وقال: تأكل، والأكل من صفات الإنسان والحيوان أيضًا، لكنّ الشّاعر استعار هذه الصّفة، ووصف بها النّار لعلاقة المشابهة القائمة على أنّ النّار تلتهم وتحرق وتدمّر كلّ شيء؛ فكذلك عملية الأكل التي تطحن وتفتت وتمضغ كلّ ما يدخل إلى الفم من طعام؛ فحذف المشبّه به (الإنسان) وأبقى شيئًا من لوازمه (تأكل) مع وجود قرينة (الحطب) تمنع أن تكون عمليّة الأكل حقيقيّة؛ فقال قيس بن الخطيم[3]:

إنّ بنـــي الأوسِ حِـــينَ تَسْـــتَعِرُ الـــ

ـــحَرْبُ لَكالنّـــارِ تأكـــلُ الحَطَبَـــا

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٥١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢١٤.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٧٦.

واستعار الشّاعر من صفات الإنسان والحيوان أيضًا الحنين، وألصقها بجمادات لا تحسّ وهي الأرحام والصّحف؛ فالشّاعر صوّر الالتزام بالعقود والمواثيق بحنين الإنسان على أخيه الإنسان، أو حتى حنين الحيوانات على بعضها، فحذف المشبّه به وأبقى شيئًا من لوازمه (حنّت)، مع وجود قرينة تمنع هذه الكلمة من أن تأتي بمعناها الحقيقي وهو ذكره للصحف والأرحام، قال الشّاعر[1]:

لمّا بَدتْ غُدْوَةً جِباهُهُمُ
حَنّتْ إلينا الأرْحامُ والصُّحُفُ

وهكذا توالت الاستعارات عند الشّاعر؛ فهي من بيئته الطّبيعيّة التي يحياها من حيوانات مختلفة وصحار يقطعها، ومن حياة حرب كان فارسًا مقدامًا فيها، وما فيها من بطولات وأدوات حرب.

ونجد أنّ الاستعارة هي أقلّ ورودًا في شعر قيس بن الخطيم مقارنةً بالتّشبيهات، وذلك لما تحتاجه الاستعارة من عمل ذهنيّ، يبتعد عنه الجاهليّ ببساطته وعفويّته، فتكون صوره واضحة لا غرابة فيها أو تكلّف.

٣,١,٤ الكناية:

الكناية لغة أن نتكلّم بالشيء ونريد غيره، وهي مصدر كالعناية والرّماية والهداية، يقال هدى هداية، ورعى رعاية ورمى رماية وكنى كناية[2]. « والكنية على ثلاثة أوجه:

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١١٧.

(٢) عبّاس، البلاغة فنونها وأفنانها، السّابق، ص٢٤٧.

أحدها: أن يكنّى عن الشّيء الذي يستفحش ذكره، وثانيها: أن يكنّى الرّجل باسم توقيرًا وتعظيمًا، وثالثها: أن تقوم الكنية مقام الاسم فيعرف بها كما يعرف باسمه كأبي لهب اسمه عبد العزّى عرف بكنيته فسمّاه الله بها».[1]

والكناية من أساليب البيان العربي التي استخدمها في الكشف عن مكنونات نفسه، فهي مظهر من الإبداع التعبيري عنده، وهي «أن يريد المتكلّم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورِدفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلًا عليه مثال ذلك: قولهم في طويل النجاد ويريدون طول القامة، وكثير الرّماد أي كثير القرى»[2]. «فالكناية: لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ»[3].

وفي ديوان قيس بن الخطيم توقفت على العديد من الكنايات في شعره، والتي كانت في معظمها من صدى المعارك وصليل السّيوف.

فكناية عن كثرة عدد قومه في المعركة، وترّاصّهم فيها وتماسكهم ووحدتهم، يقول الشّاعر لو وقع حنظل على رؤوسهم فهو على أملاسه واستواء أجزائه لم ينزل إلى الأرض، ونجد هذا في قوله[4]:

---

(١) الزبيديّ، مرتضى بن محمّد، تاج العروس، تحقيق: عبدالفتّاح الحلو، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٦م، الجزء الرّابع، ص٢٠٧.

(٢) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص ١١٠.

(٣) القزوينيّ، الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمّد عبد المنعم خفاجي، الطّبعة الرّابعة، دار الكتّاب اللبنانيّ، ص ٣١٨.

(٤) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٨٦.

لَوَانَّـكَ تُلْقـي حـنظلًا فـوق بَيْضِنا

تَـدَحْرَجَ عَـنْ ذي سـامِهِ المُتقـارِبِ[1]

وعن كثرة القتلى من الأعداء كنّى الشاعر عن ذلك بـ (شباعًا ضباعها)[2].

وكناية عن الشدّة جعل الشّاعر الموت أسفل الحائطين، فقال[3]:

لهـا حائطـانِ المَـوتُ أسْـفَلَ مِنْهُمـا

وَجَمْـعٌ متـى يُصْـرَخْ بيثْـرِبَ يُصْـعِدِ

وقوم قيس بن الخطيم يقبلون إلى المعركة بإقدام وشجاعة، متخذين من صفات الإبل في السّرعة وصفًا لهم؛ فكناية عن ذلك قال إنّهم يرقلون إلى الموت[4].

واستخدم الشّاعر عبارة (يحمرّ لونها) كناية عن الدّم، وذلك في وصفه للمعركة وكيف تحولت المنطقة سوداء اللون إلى حمراء لكثرة ما سال من دماء، فاللون الأسود قاتم وليس من السّهولة تغيّر لونه إلى لون آخر، ولكن كثرة الدماء كما قلنا جعلت منه لونًا أحمرَ، قال قيس بن الخطيم[5]:

تَـرَى اللّابَـةَ السّـوْداءَ يَحْمـرُّ لَوْنُهـا

ويُسْـهِلُ مِنْهـا كـلُّ رِيـعٍ وَفَدْفَـدِ[6]

---

(١) السّام: خطوط ذهب على البيض تُموّه بها.

(٢) انظر: ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٤٤.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٢٦.

(٤) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٨٤.

(٥) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٢٦.

(٦) اللّابة واللوبة: الحرّة، يسهل: نزل الدم منها، الرِّيع: المرتفع، الفدفد: جمع فدافد فيه صلابة وحجارة.

وفي موضع آخر يصوّر الشّاعر المعركة، في صورة من الصّور الحربيّة التي اغتنمها الشّعراء لتصوير المعارك والحروب؛ فالحرب لا ترحم ولا تستثني أحدًا، وعلى أرض المعركة يتعرّض للقتل والأسر كل من هم بداخلها، صغارًا كانوا أم كبارًا، فالمعركة كالرّحاة التي تسحن كلّ شيء. وكناية عن شدّة المعركة وهولها، وقدرة الشّاعر واستطاعة قومه على تحقيق النتائج قال(تذك نيرانها)[1]:

وقَــدْ عَلِمُــوا أنْ متــى نَنْبَعِــثْ

عَلــى مِثْلِهــا تَــذْكُ نِيرانُهــا[2]

ويرى الشّاعر أنّ الأعداء وقعوا تحت الذلّ والمهانة، جرّاء ما تعرّضوا له من القتل والبطش على أيدي قوم الشّاعر من الأوسيين؛ فقد بلغ بهم الذّلّ والخوف مبلغًا رضيت به نفس الشّاعر، فهم من خوفهم يختبئون في قعر آطامهم، لا يستطيعون أن يبرحوها إلى إبلهم العازبة في المرعى ليردّوها إليهم إلّا إذا ناصرهم جماعة يحمونهم؛ فكناية عن ذلك قال بأنّهم لا يريمون قعرها: في قوله[3]:

رَضِــيتُ لَهُــمْ إذْ لا يَرِيمُــون قَعْرَهــا

إلــى عــازِبِ الأمــوالِ إلا بصــاحبِ[4]

وفي موضع آخر فأعداؤهم يساقون كما تساق الإبل وغيرها إلى السّوق، وتعرض للبيع، كناية عن الذلّ والمهانة التي تعرّضوا لها[5]. ومن مواضع الكنايات الأخرى التي

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٧٢.

(٢) نبعث: أي نُحمل على فعل الأمر، تذْك: تشتعل.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٩٢.

(٤) عازب الأموال: هي الإبل والشّاء التي تعزب عن أهلها في المرعى.

(٥) انظر: ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢١٤ .

وردت عند الشّاعر (معصّب مسواف) كناية عن الجوع[1]. (والفرس تلوك اللجاما) كناية عن قوتها[2]. وكناية عن الدّرع استخدم الشّاعر ثوب المحارب[3].

وفي إحدى الوقائع بين الأوس والخزرج يصف قيس بن الخطيم قتلهم لسراة القوم من الخزرج، لأنّهم أقرانهم، وعفوا عمن دون السّادة، فلا يليق بهم أن ينازلوهم ويقاتلوهم، وكناية عمن هم دون السّادة وصفهم بأنّهم أولاد الإماء والحواطب، فقال قيس مصوّرًا ذلك[4]:

أَصَـــابَتْ سَـــرَاةَ مِ الأغَـــرّ سُـــيوفُنا

وغُـــودِرَ أولادُ الإمـــاء الحَواطِـــبِ

وكناية عن ثبات الرأي يتبع قيس الرأس ويترك الذنبا، فقال[5]:

لاقَيْـــتِ أمـــري والـــرَّأيُ مُـــؤْتَنِفٌ

أَتْبَـــعُ رأسَـــا وأتْـــرُكُ الـــذَّنَبا

في غَيْـــرِ مـــا كُنْهِـــهِ سَـــفِهْتِ ومـــا

أحْـــدَثْتِ حـــالًا فتُحْـــدِثي الخُطَبـــا[6]

---

(1) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٩١.

(2) انظر: ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢١٤ .

(3) المرجع نفسه، ص ٩٢.

(4) المرجع نفسه ، ص ٩١.

(5) المرجع نفسه، ص ١٧٤.

(6) في غير كنهه: أي في غير وقته وقدره.

وكناية عن الخيلاء فنجد الشّاعر يقول: (خَطّ مِئزري)، في قوله[1]:

إذا مــا اصْــطَبَحْتُ أرْبَعًــا خَــطَّ مِئْــزَري

وأتْبَعْــتُ دَلْــوي في السَّــخاء رِشــاءها[2]

ومحبوبة الشّاعر تستغرق طرف وبصر من ينظر إليها، وتشغله عن النّظر إلى غيرها لجمالها، وهي لاهية غير متزيّنة أو محتفلة بمن ينظر إليها، وكناية عن جمال الوجه صوّرها الشّاعر بـ (كأنّما شفّ وجْهها نزف)، قال قيس بن الخطيم[3]:

تَغْتَــرِقُ الطَّــرْفَ وهْــيَ لاهِيَــةٌ

كأنّمــا شَــفَّ وَجْهَهــا نُــزُفُ[4]

و(تنفح بالمسك أردانها) كناية عن البحبوحة والنعمة والسعادة والهناء[5].

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٤٢.

(٢) خطّ مئزري: أي جررت ثوبي من الخيلاء.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٠٤.

(٤) الطرف: النظر، وهي لاهية: غير محتفلة، نزف: خروج الدم.

(٥) انظر: ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٦٩.

٢,٤ أثر البديع في الصّورة الفنّيّة:

البديع لغة: بدع الشّيء يبدعه بدعًا، وابتدعه: أنشأه وبدأه[١]. والبديع الجديد والحديث[٢]. وفي القرآن الكريم، قوله تعالى: (قُلْ ما كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ)[٣].

يشار إلى أنّ أوّل من وضع كتابًا في فنون البديع هو عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ)، وسمّاه (البديع)، وقال في مقدّمته: « قدّمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدناه في القرآن الكريم، واللغة وأحاديث الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، وكلام الصّحابة، والأعراب، وغيرهم، وأشعار المتقدّمين من الكلام الذي سمّاه المحدثون البديع؛ ليعلم أنّ بشارًا ومسلمًا وأبا نواس، ومن تقبلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفنّ، ولكنّه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمّي بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه»[٤].

وفي هذه الدّراسة تأكيد لما قاله ابن المعتز؛ فهو وإن وضع هذا الكتاب في العصر العبّاسي، إلّا أنّ قيس بن الخطيم شاعر جاهليّ أي في عصر ما قبل ابن المعتز بكثير، وفي شعره الكثير من فنون علم البديع التي سنتوقف على أبرزها ورودًا في شعره.

والبديع هو علم يقف على تزيين الألفاظ أو المعاني بألوان بديعيّة من الجمال اللفظي أو المعنوي[٥]. وهو علم تعرف به الوجوه والمزايا التي تُكسب الكلام حُسنًا

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة بدع.

(٢) عبّاس، البلاغة فنونها وأفنانها، السّابق، ص٢٧٥.

(٣) الأحقاف(٩).

(٤) ابن المعتزّ، عبد الله، البديع، تحقيق: محمّد فؤاد سزكين، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٠م، ص١-٢.

(٥) الجارم، علي، البلاغة الواضحة، ص ٢٦٣.

وقبولًا بعد مطابقته لمقتضى الحال. وهو يقسم إلى قسمين: محسنات معنوية كالطّباق، ومحسنات لفظيّة مثل الجناس[1].

١,٢,٤ الطّباق:

يقصد بالطّباق الجمع بين الشّيء ومقابله أو الشّيء وضدّه، وقد يكون الشيئان المجموع بينهما اسمين أو فعلين أو حرفين[2].

وفي شعر قيس بن الخطيم أمثلة مختلفة على الطباق، ومنها مطابقته بين لفظي قائم وقاعد، وذلك في قوله[3]:

كَمْ قائمٍ يُحْزِنُهُ مَقْتَلي

وقاعِدٍ يَرْقُبُني شَامِتُ

وكان هذا في رثائه لنفسه بعد أن أصابته السّهام في صدره وقد مات منها بعد أيّام، وقصد بقائمٍ كلَّ فارس شجاع، وقصد بقاعد كلّ ذليل مهان. وهو طباق إيجاب تقابل فيه المعنيان بالتّضاد ولم تستخدم فيه أدوات ووسائط لغويّة.

ومن أمثلة الطّباق في شعر قيس بن الخطيم مطابقته بين البخل والسّخاء، وكان لهذا الطباق دور في توضيح حكمته: لا ينفع البخيل ماله ولا يزر السّخاء صاحبه، فقال[4]:

---

(١) عبّاس، فضل حسن، البلاغة فنونها وأفنانها، ص٢٧٦ .

(٢) المرجع نفسه، ص٢٧٩.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢١١.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٢٥.

وَلَيْسَ بِنَافِعٍ ذا البُخْلِ مالٌ

ولا مُزْرٍ بِصاحِبِهِ السّخاءُ

ويطابق بين داء وشفاء، وذلك في قوله[1]:

وَبَعْضُ الدَّاء مُلْتَمَسٌ شِفاهُ

وداءُ النُّوكِ ليس لَهُ شِفَاءُ

وفي حديثه عن تقلب الدّهر يطابق قيس بن الخطيم بين اسمين هما: الصّبح والمساء، فيقول[2]:

كَذَاكَ الدَّهْرُ يَصْرِفُ حالَتَيْهِ

ويُعْقِبُ طَلْعَةَ الصُّبْحِ المَساءُ

وتتوالى الأيّام وخطوبها، وتتبدّل حالها من الفرح والحزن، فيطابق الشّاعر بين سَرّ وساء فأضفى على حكمته رونقًا وجمالًا، فقال[3]:

ومِنْ عادَةِ الأيّامِ أنَّ خُطوبَها

إذا سَرَّ مِنْها جانِبٌ ساء جانِبُ

وفي موضع آخر يبيّن الشّاعر استعداده الدّائم للدّفاع عن عرضه ويقظته التّامّة، فيطابق الشّاعر بين الحدثان والمرح، فيقول[4]:

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢٢٥.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢٢٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٢٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٣٣ .

ولا يُنْسِـــــينيَ الحَـــــدَثانُ عِرْضـــــي

ولا أَرْخـــــي مِـــــنَ المَـــــرَحِ الإزارا

٢,٢,٤ الجناس:

الجناس هو أن يتشابه اللفظان في النّطق ويختلفا في المعنى، وهو نوعان: تامّ وهو ما اتّفق فيه اللفظان في أمور أربعة هي: نوع الحروف، وشكلها، وعددها وترتيبها، وجناس غير تامّ وهو ما اختلف فيه اللفظان في واحد من الأمور الأربعة السّابقة[١].

وفي ديوان قيس بن الخطيم أمثلة غير كثيرة على الجناس، ومنها الجناس غير التّامّ بين كلمتي سوّد والسّوء وفيهما اختلاف في نوع الحروف وشكلها، في قوله[٢]:

أرى كثْـــرَةَ المَعْـــرُوفِ يـــورِثُ أهْلَـــهُ

وسَـــوَّدَ عَصْـــرُ السَّـــوْءِ غَيْـــرَ المُسَـــوَّدِ

وفي جناس غير تامّ بين كرز ونزر، يقول الشّاعر[٣]:

وإنْ نَنْـــزِلْ بِـــذِي النَّجَـــدَاتِ كُـــرْزٍ

نُـــلاقِ لَدَيْـــهِ شُـــرْبًا غَيْـــرَ نَـــزْرِ

(١) الجارم، البلاغة الواضحة، ص ٢٦٥.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٢٨.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٨٥.

وبين عرف وعنف جناس غير تامّ، في قول قيس بن الخطيم[1]:

قَـــدْ كُنْـــتُ أدْرَكْتُـــهُ فـــأدْرَكَني

للصَّـــيْدِ عـــرفٌ مِـــنْ مَعْشَـــرٍ عُنُـــفِ

وبين طغوا وبغوا يجانس الشّاعر جناسًا غير تام وفيهما اختلاف في نوع الحرف الأوّل، وذلك حين قال[2]:

إنَّ بَنـــي عَمّنـــا طَغَـــوْا وبَغَـــوْا

ولَـــجَّ مِـــنْهُمْ في قَـــوْمِهِمْ سَـــرَفُ

ومن الجناس غير التام في شعر قيس أن جانس بين كلمتي (بين وبني) حين غيّر في ترتيب الحروف، في قوله[3]:

بَـــيْنَ بَنـــي جَحْجَبـــى وبـــينَ بنـــي

كُلْفَـــةَ أنّـــى لِجَـــارِيَ التَّلَـــفُ

إنّ الشّعر عند قيس بن الخطيم جاء دون تكلّف ويخلو من التّصنّع، ودليل ذلك ما توقّفنا عنده في هذا الفصل من صور بيانيّة وبديعيّة.

فكان التّشبيه أكثر الأساليب البيانيّة ورودًا في شعره، وعبّر بكنايات جميلة عن مكنون نفسه وخاصّة نظرته للأعداء وما حلّ بهم، واستعار لذلك مجموعة من الألفاظ

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٢٣٦ .

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٣٩ .

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٤٠ .

من صلب بيئته وحياته. ومن الصّور البديعيّة التي وقفت عليها الدراسة في شعره، الطّباق والجناس.

٣,٤ قراءة في قصيدة «أتعرف رسما كاطّراد المذاهب»

قال قيس بن الخطيم قصيدته هذه مصوّرًا أهم الوقائع والأيام التي اشتدّ أوارها بين الأوس والخزرج، ومن هذه الحروب حرب حاطب. وتنسب هذه الحرب إلى حاطب بن قيس بن هيشة بن الحارث بن أمية بن معاوية بن مالك بن عوف وكان رجلا محمود الصحبة[١]. فقد حدث أنه أجار رجلا من بني ثعلبة بن سعد وأضافه، فخرج ضيفه ذلك إلى سوق بني قينقاع، فأمر رجل من بني الحارث بن الخزرج رجلًا من اليهود فكسح استه، فصرخ الثعلبي: يا جاراه كُسعتُ . فأقبل حاطب مُغضَباً فقتل اليهودي، ثم أُخبر أن الخزرجي أمر بذلك، فعمد إلى الخزرجي فقتله وانصرف. فبلغ ذلك بني الحارث، فخرجوا سراعـًا حتى أدركوا حاطبًا فقتلوه[٢]. وتجهّز الفريقان: الأوس ومن حالفهم من جانب والخزرج ومن حالفهم من جانب آخر والتقوا في أيام ووقائع مختلفة كانت الحرب سجالاً بينهم، وكان لقيس بن الخطيم فيها بطولات، وفيها انبرى لسانه بسنانه، حتى كانت سبباً في مقتله بعد أن هدأت المعارك بين الحيين لشدّة نكايته بهم، وهجائه اللاذع للخزرج في هذه القصيدة البائيّة. ويبدأ الشاعر قصيدته بالوقوف على الأطلال مستنكراً ما أصاب المكان حتّى أنكره، فيقول[٣]:

أتعـرفُ رسـمًا كـاطّرادِ المـذاهبِ

لَعَمْـرةَ وَحْشًـا غيـرَ موقِـف راكـبِ[٤]

---

(١) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ج ٢، ص٣٣٥.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ١٩٥-١٩٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٧٦.

(٤) اطّراد: تتابع، المذاهب: جلود كانت تُذَهَّب، واحدها: مذهب، تُجعل فيها خطوط مذهبة بعضها في إثر بعض فكأنّها متتابعة، وحشًا: قفرًا.

فقد بقيت رسوم المكان بعد المطر والرّياح تُرى من بعيد كأنما يطّرد بعضها في أثر بعض، وأنّ هذا المكان أقفر لولا هذا الراكب ويعني نفسه. وهي «صورة طريفة قليلة التّداول على ألسنة الشعراء»[1] وصف فيها الشّاعر ديار عمرة وآثارها الباقية بالمذاهب. تلك الدّيار التي كادت عمرة تحمله على البقاء فيها لشدّة حبه لها وفتنته بها، ولم يمنعه من ذلك سوى نفرة الناس وتفرقهم عن منى بعد قضاء حجهم وعودتهم إلى ديارهم، وعمرة التي تغنّى بها هي عمرة بنت رواحة، أخت عبدالله بن رواحة، وهي أم النّعمان بن بشير الأنصاري[2]:

ديارَ التي كادتْ -ونحنُ على مِنًى-

تَحُلُّ بنا ، لولا نَجاءُ الرَّكائبِ[3]

ويبدو أنّه مولع بها وأنّ لها سحرًا عليه؛ فهي تلك الفتاة الجميلة تظهر له بصورة الشّمس التي يغطي الغمام جانباً منها فتثيره بهذه الصورة الرائعة وتأسره وتسلب نظره، فصوّرها بصورة قيل هي من أحسن ما قيل في الوجه من الشّعر القديم[4]، فيقول[5]:

تَبدَّتْ لنا كالشَّمْسِ تحتَ غمامةٍ

بَدا حاجبٌ منها وضَنّتْ بحاجبِ[6]

---

(١) حسن محمّد، جليل، قيس بن الخطيم، ص١٤٢.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٧٧.

(٣) النّجاء: سرعة السّير.

(٤) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٧٩.

(٥) المرجع نفسه، ص ٧٩-٨٠.

(٦) حاجب: جانب.

وَلَمْ أرَهَا إلّا ثلاثًا عَلَى مِنًى
وعَهْدي بها عَذْراءَ ذاتَ ذَوائبِ

ومِثْلِكِ قد أصْبَيْتُ ليستْ بكَنّةٍ
ولا جارةٍ ولا حَلِيلةِ صاحبِ

فهي التي لم يرها في حسن إلا ثلاثاً، وكان عهده بها صغيرة عذراء أي لم تبلغ أن نالها الرجال. ويفخر بقدرته على إغواء المرأة ولكنّه يتعفّف ويتذمّم أن يفعل ذلك بكنّة أو جارة أو زوج صاحب فهو مأمون الجانب. وبعد هذه المقدمة ينتقل الشّاعر إلى عرض لوحته الحربيّة التي يبدأها بالفخر الشّخصيّ، فيدعو إلى السّلم وهي صورة تظهر أنّ الجاهليّ كان صادقاً في ميله للسّلام الذي تظهر ملامحه من خلال النّصح والتّحذير والإنذار[1]، فقد دعا قيس أعداءه لحقن الدّماء وإنّه لا يقبل على الحرب ويحاول دائماً إبعادها، لأنّ الحرب كريهة «تمثل استباحة وحشيّة لأمن الفرد وسلامته، وتدميراً لبنية المجتمع وأركانه»[2]، فقال[3]:

دعَوْتُ بني عَوْفٍ لحَقْنِ دمائهمْ
فلمّا أبَوْا سامحْتُ في حَرْبِ حاطبِ[4]

---

(١) المزايدة، ضيف الله محمّد، صورة الشّاعر المحارب في الشّعر الجاهليّ دراسة تحليليّة وتأويليّة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة،٢٠١٣م، ص ٥٥.

(٢) الرّفوع، خليل، صورة الحرب في الشّعر الجاهليّ، ص ١١٤.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٨٠ - ٨١.

(٤) بني عوف: أحد قادة الخزرج، سامحت: تابعت.

وكُنْـتُ امْـرءًا لا أبْعـثُ الحَـرْبَ ظالمًـا

فلمّـا أبَـوْا أشْعَلْتُهـا كُـلَّ جانـبِ

أرِبْـتُ بـدَفْع الحَـرْبِ حتـى رأيْتُهـا

عـن الـدَّفْعِ لا تـزدادُ غيـرَ تقـارُبِ(١)

فدعا الشّاعر أعداءه للسّلم لأنّه لا يحارب دون وجه حقّ؛ فلّما رفض الأعداء دعوات السّلم لم يتوان عن مجابهة الأعداء، ومقاتلتهم، وإشعال النّار من كلّ جانب فتشتدّ اضطراماً، وتغيّظاً وفيه تسريع لشبوبها، فتقوم بوظيفة الإهلاك المنوطة بها وليست تلك الوظيفة الجمالية التي تنشر الضوء والدفء والأمن(٢). لذلك جعل الشّاعر الحرب ناراً لا تبقى ولا تذر، لكن الحرب التي كلما حاول إبعادها لا تزداد إلاّ تقاربًا، ويدخل الشّاعر في المواجهة الحربيّة مرحباً بها بعد أن نفدت كل وسائل السِّلم فما بقي أمامه إلّا الحرب، فيقول(٣):

فـإذْ لـم يَكُـنْ عَـنْ غايـةِ المـوْتِ مَـدْفعٌ

فـأهْلاً بهـا إذْ لـم تَـزَلْ في المَرَاحـبِ(٤)

فصوّر الشّاعر الحرب بالموت، «فمن يذهب إلى الحرب هو في الحقيقة يذهب إلى الموت الذي قد يخطفه أو يخطف خصمه»(٥).

---

(١) أربت: من الأرب والإربة والمأربة: الحاجة، وأرب بالشيء: صار ماهرًا به.

(٢) الرّفوع، خليل، صورة الحرب في الشّعر الجاهلي، ص ١٠٨-١٠٩.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٨١.

(٤) المراحب: جمع مرحب وهو السّعة.

(٥) الرّفوع، خليل، صورة الحرب في الشّعر الجاهلي، ص ١١٤.

ويؤنسن الشاعر الحرب فهي امرأة تجردت من لباسها فأظهرت مفاتنها أمام المحاربين وهي بذلك لا تبقي على أي تردّد أو تراجع، وهي صورة إغوائيّة تقابل بالإقدام[1]، فلبس قيس لباس الحرب دون أن يخلع لباس السّلم لأن لا وقت لديه فالحرب قد اشتدّت أوزارها، فيقول: [2]:

فلمّا رأيْتُ الحَرْبَ حَرْبًا تجرَّدَتْ

لَبِسْتُ مَعَ البُرْدَيْن ثوْبَ المُحارِبِ[3]

مُضَاعَفَةً يَغْشَى الأنامِلَ فَضْلُها

كأنَّ قَتيرَيْها عُيُونُ الجنادِبِ[4]

يعتبر الشّاعر فرداً من القبيلة ويخضع لنظامها ويقع عليه ما يقع على الآخرين، فمن حقّ القبيلة عليه أن يقف معها في سلمها وحربها، وهذا هو بالفعل العامل الرئيس الذي يحرّك الشّاعر ويجعله يدافع عن قبيلته ويناضل من أجلها أمام القبائل الأخرى، فيذكر أمجاد القبيلة وانتصاراتها وحروبها الطّاحنة، ويفخر الشّاعر ببطولات أبناء قبيلته. فهم ومن حالفهم من القبائل الأخرى من اليهود وغيرهم لا يفعلون إلا الأفعال الحسنة، وصورهم بصور حربية تنمّ عن شجاعتهم وإقدامهم يقبلون إلى المعركة إذا دعوا إليها مسرعين كمشي الجمال الحرّة الطليقة التي لم تذلل أبداً. وهم يتدفقون لنجدة من يستغيث بهم كأمواج السيل، يهرعون إلى الأعداء يقارعونهم ويقضون عليهم، فقال[5]:

---

(١) الرّفوع، خليل، صورة الحرب في الشّعر الجاهلي، ص ١٠٢.

(٢) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٨٢ .

(٣) ثوب المحارب: الدّرع .

(٤) القتير: رؤوس المسامير لحلق الدّروع.

(٥) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٨٣-٨٤ .

أَتَــتْ عُصَــبٌ مِ الكــاهِنَيْنِ ومالــــكٍ

وَثَعْلَبَــةَ الأَثْــرِينَ رَهْــطِ ابــن غالــبِ[1]

رِجـالٌ متـى يُـدْعَوْا إلـى المـوت يُرْقِلـوا

إليــه كإِرْقــالِ الجِمَــالِ المَصَــاعِبِ[2]

إذا فَزِعــوا مَــدُّوا إلــى اللّيْــلِ صارخًــا

كَمَــوْجِ الأتــيّ المُزْبِــدِ المُتراكِــبِ[3]

ولشدّة هـول المعركـة يصـوّر تكسّـر الرّمـاح تحـت قـوّة الضّـرب وتحطّمهـا كتكسـير السّعف الطّويلة بين أيدي النساء، فيقول: [4]:

تَــرَى قِصَــدَ المُــرَّانِ تَهْــوِي كأنّهــا

تَــذَرُّعُ خِرْصــانٍ بأيــدي الشَّــواطبِ[5]

(١) الكاهنان: قريظة والنّضير، ثعلبة: هم بنو بن عمرو بن مالك بن الأوس، الأثرين: الأثر: الرّجل الذي يستأثر على أصحابه أي يختار لنفسه أفعالًا وأخلاقًا حسنة.

(٢) إرقال البعير: أن ينفض رأسه ويرفعه ويسير سيرًا سريعًا، المصاعب: المصعب: الذي لم يمسّه حبل ولم يذلّل.

(٣) الصّارخ: المغيث، الأتيّ: السّيل يأتيك ولم يصبك مطره .

(٤) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٨٥.

(٥) قِصد: كِسر، المُرّان: الرّماح، التذرّع: قدر ذراع، الشّطبة، السّعفة الطّويلة، الشّاطبة: المرأة التي تقشر العسيبَ ثم تلقيه إلى المنقّية فتأخذ كل شيء عليه بسكينة حتى تتركه رقيقًا ثم تلقيه المنقّية إلى الشّاطبة ثانية فتشطبه على ذراعها وتتذرعه.

ويصوّر الشّاعر كيف ظهر هو وقومه على الأعداء في آطامهم، فهم كالنّجوم لبريقها، وخصّ أولى البيض لأنّ الرؤية تقع عليها أوّلًا، ولأنّ ما وراءها يستره الغبار، ويصوّر كثرة قومه وتراصّ صفوفهم ويقول بأنّك لو ألقيت حنظلًا من فوق رؤوسهم لم ينزل إلى الأرض على الرغم من ملاسته واستواء أجزائه، وذلك في قوله[1]:

صَبَحْنا بها الآطام حَوْلَ مُزاحِمٍ
قَوَانِسُ أُولى بَيْضِنا كالكَواكبِ[2]

لَوَانّكَ تُلْقي حنظلًا فوق بَيْضِنا
تَدَحْرَجَ عَنْ ذي سامِهِ المُتقارِبِ[3]

ويتابع الشّاعر فخره ببطولات قومه وشجاعتهم، فهم يتميّزون في إقدامهم في الحرب ولا يفرّون، وإذا أرادوا الفرار فلا يتجاوز فرارهم إزاحة وجوههم وإشاحتها عن الرّماح وأقدامهم ثابتة يقاتلون الأعداء ببسالة، فيقول في أجود وأحسن ما قيل في الفرار[4]:

إذا ما فَرَرْنا كانَ أسْوَا فِرارِنا
صُدُودَ الخُدودِ وازْوِرَارَ المناكب[5]

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٨٦.

(٢) مزاحم: أُطم، القوانس: جمع قونس وهو الناتئ في أعلى البيضة وقال أولى لأنّهم إنّما يرون أوّل من يطلع عليهم.

(٣) السّام: خطوط ذهب على البيض تُموّه بها.

(٤) ابن الخطيم، الدّيوان ، ص ٨٧.

(٥) أسوا: أسوأ: أقبح.

صُــدُودَ الخُــدُودِ والقنــا مُتَشــاجِرٌ

ولا تَبْــرَحُ الأقــدامُ عنــد التّضــارُبِ

وفي صورة حربيّة تشعّ حركةً وفروسيّة يصوّر امتشاقهم للسّيوف التي إذا قصرت عن رقاب الأعداء فيكون وصلها بخطاهم ووثبهم إلى رقاب الأعداء يضربونها، فيقول[1]:

إذا قَصُــرَتْ أسْــيافُنا كــانَ وَصْــلُها

خُطانــا إلــى أعــدائنا فنضــاربِ[2]

ويظهر الشاعر بصورة اللاعب الذي يلعب بخرقة ويحرّكها كيفما شاء ولا شكّ أنّ هنالك معنى واضحاً غير مبطّن يظهر عند الشّاعر من خلال هذه الصورة، فقد رسم صورة للبراعة والحذق والدّقّة في استعمال السّيف في ساحة الحرب لإيصال فكرة الشّجاعة الفائقة لنفسه ولقومه ليزدادوا قوّة، ولإضعاف الرّوح المعنويّة لدى الخصم، فيقول:

أُجالِــدُهُمْ يَــوْمَ الحَدِيــقةِ حاسِــرًا

كــأَنَّ يَــدي بالسّــيْفِ مخــراقُ لاعــبِ

وتوصف الحرب بالكريهة لأنّها «مرّة ومن يغشاها يكون شديد البأس قاسي القلب أي أنّه يتحوّل إلى جزء من الكريهة تلك»[3]، وهذا ما نجده عند قيس بن الخطيم الذي يفتخر بيوم بعاث وهو من الأيام المشهورة التي انتصرت فيها الأوس على الخزرج.

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٨٨.

(٢) خطانا: خطواتنا.

(٣) الرّفوع، خليل، صورة الحرب في الشّعر الجاهليّ، ص ١١٣.

ويقول بأنّ سيوفنا رفعتنا إلى حسب حي بصير بالحرب، لا إلى حسب لئيم لا يصبر عليها، ونراه يفتخر وهو يصف لون السيوف بيضاء قبل بدء المعركة وعند انتهائها فهي حمراء مروّاة بالدّماء، وقد رقّت لكثرة استعمالها، فهذه نفسيّة المحارب الذي يتغنّى بلون الدّماء مفتخراً بقدرته على إراقتها، فيقول [1]:

وَيَــــوْمَ بُعــــاثٍ أَسْلَمَــــتْنا سُــــيُوفُنا

إلــى نَسَــبٍ في جِــذْمِ غَسّــانَ ثاقِــبِ [2]

يُعَــرَّيْن بِيضًــا حِــينَ نَلــق عَــدُوَّنا

ويُغْمَـدْنَ حُمْـرًا نـاحلاتِ المضـارِبِ [3]

وبصورة هجاء لا يخلو من السّخرية يصوّر الشّاعر مقتل قائد الأعداء الذي لم يذعن لدعوات السّلام وقاد قومه للحرب والهلاك، فكان هذا القائد أوّل قتيل في المعركة، فمقتله يعني إهباطاً لعزيمة الخصم وإضعافاً للرّوح المعنويّة لديهم وإجبارهم على الانهزام، فيقول [4]:

أطاعَــتْ بَنُــو عَــوْفٍ أميــرًا نهــاهُمُ

عَــنِ السِّــلْمِ حتــى كــان أوّلَ واجــبِ

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٨٩.

(٢) ثاقب: مضيء غير خامل أي متوهج، جِذْم: أصل، ومعنى قول قيس بن الخطيم أنّ سيوفنا رفعتنا إلى حسب حيّ بصير بالحرب.

(٣) حمرًا: من الدّم، ناحلات المضارب: السّيوف التي رقّت ظباها من كثرة الاستعمال، المضارب: مضرب السّيف: نحو شبرٍ من طرفه.

(٤) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٩٠.

وفي هجاء لاذع يصور الشاعر نساء عوف نساء الأعداء حين أخذن يرمينّهم من فوق الآطام دفعًا عن أنفسهن وقد رقّ قلبه لحالهنّ، ثم أخذن يهربن وقد كشفن عن أسوقهنّ، فقد أعمل قوم قيس السّيوف في بني عوف، وقتلوا قادة القوم من الخزرج لأنّهم أقرانهم، وعفوا عمّن دون السّادة، فلا يليق بهم أن ينازلوهم ويقاتلوهم، فيقول [1]:

أَوَيْــــتُ لِعَــوْفٍ إذْ تقــولُ نســاؤهُمْ

وَيَــرْمِينَ دَفْعًــا: لَيْتَنــا لــم نُحــارِبِ [2]

صَـــبَحْناهُمُ شَـــهْباءَ يَبْـــرُقُ بَيْضُـــها

تُبِـــينُ خَلاخِيـــلَ النّســـاء الهـــوارِبِ

أَصَـــابَتْ سَـــرَاةً مِ الأغَـــرّ سُـــيوفُنا

وغُـــودِرَ أولادُ الإمـــاء الحَواطِـــبِ

أما قائدهم قائد الأوس فقد قال الشّاعر بأنّه امتنع عن الخمر حتى حقّق نصره على أعدائه من الخزرج [3]:

ومِنّـــا الـــذي آلـــى ثلاثـــين ليلَـــةً

عـــنِ الخَمْـــرِ حتـــى زَارَكُـــمْ بالكتائـــبِ

ويستطرد الشّاعر في هجائه الأعداء فقد بلغ بهم الذّلّ والخوف مبلغًا رضيت به نفس الشّاعر، منهم من خوفهم يختبئون في قعر آطامهم، لا يستطيعون أن يبرحوا إلى إبلهم

---

(١) ابن الخطيم، الديّوان، ص ٩٠ -٩١.

(٢) أويت لعوف: نرثي له ونشفق عليه، يرمين دفعًا: أي يرميننا من فوق الآطام دفعًا عن أنفسهنّ.

(٣) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٩١ .

العازبة في المرعى ليردّوها إليهم إلاّ إذا ناصرهم جماعة يحمونهم، ويستطيع الشّاعر وقومه الوصول إلى أي مكان دون قدرة الأعداء على صدّهم، إلّا عندما يدخلون بيوتهم منهم لا يلاحقونهم، وقد توافقت الأوس والخزرج في حروبهم أن يتوقفوا عن دخول البيوت، فيقول[1]:

رَضِيتُ لَهُمْ إذْ لا يَرِيمُونَ قَعْرَها

إلى عازبِ الأموالِ إلا بصاحبِ[2]

فَلَوْلا ذُرى الآطامِ قد تَعْلَمونَهُ

وتَرْكُ الفضا، شُورِكْتُمُ في الكواعبِ

فَلَمْ تَمْنَعُوا مِنّا مكانًا نُرِيدُهُ

لَكُمْ مُحْرِزًا إلا ظُهُورَ المشارِبِ[3]

ويخاطب الشّاعر أعداءه ويصفهم بعدم القدرة على مواجهة قيس وقومه، ولا يصبرون على مقاتلة الأوسيين، وقد استعار كلمة العوان وهي تدلّ على الناقة التي أنجبت من قبل، «وقد استعار الشّعراء هذه الدّلالة للحرب لتشي بأنّها شديدة قوتل فيها كثيراً، فحينئذ يكون أبطالها مدرّبين على خوض غمراتها»[4]، وهم في حالة ذلّ كأولاد النّياق المقعيّة بين أمّهاتها، فيجبرهم الشّاعر وقومه على ما يريدون، يقول[5]:

---

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٩٢-٩٣ .

(٢) عازب الأموال: هي الإبل والشّاء التي تعزب عن أهلها في المرعى.

(٣) المشارب : الغرف .

(٤) الرّفوع، خليل، صورة الحرب في الشّعر الجاهلي، ص ٩٨.

(٥) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٩٣-٩٤.

فهــلَّا لَــدَى الحَــرْبِ العَــوَانِ صَــبَرْتمُ

لِوَقْعَتِنــا، والبــأسُ صَــعْبُ المراكِــبِ[1]

ظَأَرْنــاكُمْ بــالبِيضِ حتــى لأنْتُــمُ

أذَلُّ مِــنَ السُّــقْبانِ بَــينَ الحلائــبِ[2]

«ويحفل الشّعر الجاهليّ بضروب من الممارسات تستند إلى قيمة أسطورية، وكنا نسمع بعقيدة الثأر وحرص القبائل العربية عليه بحيث تحوّلت حياتهم بحورًا من الدّم لا تنتهي. وللثّأر ممارسات سحريّة وعقائديّة خاصّة تتصل بالتحريم، حرمة النّساء، وحرمة الخمر، وحرمة الأغتسال والتّطيّب»[3].

وهذا ما فعله أمير الأوس وقائدهم حضير الكتائب بن سماك[4]، فقد أقسم ألّا يشرب الخمرُ أو يظهر حتى ينتصر، يقول قيس[5]:

ولمّــا هَبَطْنــا الحَــرْثَ قــال أميرُنــا:

حَــرَامٌ عَلينــا الخَمْــرُ مــا لــم نُضــارِبِ

فَســـامَحَهُ مِنّـــا رِجـــالٌ أعِـــزَّةٌ

فمــا بَرِحُــوا حتــى أُحِلّــتْ لِشــارِبِ[6]

---

(١) العوان: الحرب التي قوتل فيها مرّة بعد أخرى.

(٢) ظأرناكم: عطفناكم على ما نريد أي طعننا إيّاكم عطفكم على الصّلح، السّقبان: جمع سقْب وهو الذّكر من أولاد الإبل، الحلائب: جمع الحلوبة وهي التي تحلب.

(٣) ابو سويلم، أنور، دراسات في الشّعر الجاهليّ، دار الجيل بيروت، الطّبعة الأولى ١٩٨٧م، ص١٣١.

(٤) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٩٢،٩٥.

(٥) المرجع نفسه، ص ٩٤-٩٥.

(٦) سامحه: تابعه، فما برحوا حتى أحلّت لشارب: أي بعد أن حقّق الثّأر.

ويختم الشّاعر قصيدته بهجاء مقذع، فهو يتمنى لو أنّه قدّر لسويد بن الصّامت الأوسيّ أن يرى حال الأعداء التي آلوا إليها من قتلى وفارّين وكيف يساقون كالبهائم التي تجلب، وكيف انتصروا عليهم وعادوا إلى أهلهم ونسائهم أمّا الأعداء فهم قتلى في السّاحات، فيقول[1]:

فَليْتَ سُوَيْدًا راءَ مَن جُرَّ مِنْكُمُ
ومَن فَرَّ إذْ يحْدُونَهُمْ كالجلائبِ[2]

فَأَبْنا إلى أبْنائنا ونِسائنا
وما مَنْ تَرَكْنا في بُعاثٍ بآئبِ

وغُيِّبْتُ عَن يَوْمٍ كَنَتْني عشيرتي
ويومُ بُعاثٍ كان يَوْمَ التّغالُبِ

هكذا عبّر قيس بن الخطيم عن شعور العربيّ المنتصر، مصوّرًا أهمّ الوقائع والأيّام التي سجر بنارها الأوس والخزرج قبل أن يوحّدهم الدّين الإسلامي، ويكونوا أنصارًا لرسول الله ﷺ.

وقد وضعت هذه القصيدة قيس بن الخطيم في مصافّ كبار الشّعراء لما امتازت به من إبداعات في الصّور، وصياغات أشاد بها كبار النقّاد من أمثال النّابغة الذّبيانيّ كما بيّنا في تمهيد هذه الدّراسة، وقد عدّها أبو زيد القرشيّ إحدى المذهّبات في كتابه «جمهرة أشعار العرب»[3].

(١) ابن الخطيم، الدّيوان، ص ٩٥-٩٦.

(٢) راء: رأى، الجلائب: الجماعات من الخيل والإبل والغنم والنّاس واحدتها جلوبة: وهي ما جلب من شيء أي أتي به إلى السّوق وعرضه للبيع.

(٣) القرشيّ، أبو زيد، جمهرة أشعار العرب، دار المسيرة- بيروت، ١٩٨٣م، ص ١٢٣.

الخاتمة

بدأت هذه الدّراسة الحديث عن قيس بن الخطيم ووقفت على أبرز محطّات حياته، التي جاءتنا بها المصادر التي لم تحدّثنا عن مراحل الطّفولة للشّاعر، فقد زودتنا المصادر بحياته عندما يفع وحمل سيفه لأخذ ثأره، وبرز شاعرًا فارسًا، جعلت أعداءه يحملون عليه ويقتلونه غدرًا، وكانت له منزلة عظيمة اعترف بها من عاصره ومن تبعه من الشّعراء الكبار والنّقاد الخبراء كالنّابغة وابن سلّام.

وناقشت الدّراسة موضوع الصّورة الشّعريّة وبيّنت رأي العديد من النقّاد القدماء والمحدثين فيها. وبحثت الدراسة مفهومها في شعر قيس بن الخطيم، الذي أبدع صوره واستمدّها من مصادر مختلفة كالإنسان وحياته اليوميّة وثقافته وعناصر الطّبيعة.

فكانت صور قيس بن الخطيم متعدّدة تعجّ حيويّةً ونشاطًا، فهي من ناحية جاذبة للنّظر متماوجة الحركة رقيقة الصّوت ناعمة الملمس بألوان زاهية عندما يكون الحديث عن المرأة والغزل. وهي من ناحية أخرى تنقل إلينا المنظر الكريه للحرب يختلط بها قرع القنا بلون الدّم.

وطرق الشّاعر موضوعات شعريّة متنوّعة، كان مبدعًا في تصورها، من موضوعات الشّعر العربيّ المتعدّدة من غزل وفخر وهجاء وحكمة ومديح.

وخلصت الدّراسة إلى أنّ قيس بن الخطيم يعدّ أنموذجًا من بين شعراء عصره بشكل خاص والشّعر العربيّ بشكل عام. وممّا يدلّ على ذلك بالإضافة إلى ما سبق تنوّع الصّور البديعيّة والبيانيّة عنده وتشكّلها بأسلوب أدبيٍّ، تميّز بالتوسّط والاعتدال في تنميق شعره بهذه الفنون المختلفة، فهي صور تعبّر عن صحّة الطّبع وجودة السّبك. دون تكلف أو تصنّع يدلّان على التّنميق فقط، فقيس كان همّه بثّ الحماسة في بني قومه، وإغاظة الأعداء فتعددت وكثرت المقطوعات في شعره وهذا يدلّ على أنّ معظم شعره شعر مناسبات قالها في الأيّام والوقائع التي دارت رحاها بين الأوس والخزرج.

المراجع

- الآمـديّ، الحسـن بـن بشـر، (١٩٤٤م)، **الموازنـة**، تحقيـق محمّـد محـي الـدّين عبدالحميد، بيروت.
- الأصفهانيّ، أبو الفرج، (١٩٩٢م)، **كتاب الأغاني**، مركز تحقيق التّراث، ج٣، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.
- بدويّ، محمّد، (د.ت) **كولردج: سلسلة نوابغ الفكر العربيّ**، دار المعرفة القاهرة.
- البصير، كامل حسن، (١٩٨٧م)، **بناء الصّورة الفنّيّة في البيان العربيّ موازنة وتطبيق**، مطبعة المجمع العلميّ العراقيّ.
- البطل، عليّ، (١٩٨٣م)، **الصّورة الفنّيّة في الشّعر العربيّ حتى آخر القرن الثّاني الهجريّ**، دار الأندلس، بيروت، الطّبعة الثّالثة.
- البطوش، إبراهيم، (٢٠١١م)، **الصّورة الفنيّة في شعر ابن القيسرانيّ**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة.
- بنوي، عبدالعزيز، (٢٠٠١م)، **دراسات في الأدب الجاهليّ**، مؤسّسة المختار للنّشر والتّوزيع، القاهرة.
- ابن ثابت الأنصاريّ، حسّان، (١٩٧٨م)، **الدّيوان**، دار بيروت للطّباعة والنّشر، بيروت.

- الجاحظ، أبو عثمان، (١٩٦٩م)، **الحيوان**، تحقيق: عبدالسّلام هارون، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، الطّبعة الثّالثة.
- الجارم، عليّ ومصطفى أمين، (١٩٦٩م)، **البلاغة الواضحة**، دار المعارف.
- الجبوريّ، كامل، (د.ت) **معجم الشّعراء في معجم البلدان**، مكتبة لبنان ناشرون.
- الجرجانيّ، أبو الحسن عليّ بن عبد العزيز، (د.ت) **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، تحقيق وشرح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، عليّ محمّد البجاويّ، دار القلم، بيروت، لبنان.
- الجرجانيّ، عبد القاهر، (١٩٨٤م)، **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمود محمّد شاكر، مكتبة الخانجيّ، القاهرة.
- الجرجانيّ، عبد القاهر، (٢٠٠٧م)، **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمّد رضوان الدّاية، فايز الدّاية، دار الفكر، دمشق، الطّبعة الأولى.
- ابن جعفر، قدامة، (١٩٦٣م)، **نقد الشّعر**، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، الطّبعة الثّالثة.
- الجمحيّ، ابن سلّام، (د.ت) **طبقات فحول الشّعراء**، السّفر الأوّل، قرأه وشرحه محمود محمّد شاكر، مطبعة المدنيّ، القاهرة.
- ابن حجر، أحمد بن عليّ، (د.ت) **الإصابة في تمييز الصّحابة**، دار الجيل – بيروت، الطّبعة الأولى، تحقيق عليّ محمّد البجّاويّ، الجزء السّابع.
- ابن حزم، عليّ بن محمّد، (د.ت) **جمهرة أنساب العرب**، راجع النّسخة وضبط أعلامها لجنة من العلماء بإشراف النّاشر، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ج ٢.

- حسن محمّد، جليل، (د.ت) **قيس بن الخطيم**، دار دجلة، عمّان.
- الحمويّ، ياقوت بن عبد الله، (١٩٥٥م) **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١ : ٨٦.
- الحوريّ، غصّاب نهار مطر، (١٩٩٤م)، **شعر قيس بن الخطيم دراسة وتحليل**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك.
- ابن الخطيم، قيس، (١٩٦٧م)، **الدّيوان**، تحقيق ناصر الدّين الأسد، دار صادر، بيروت، الطّبعة الثانية.
- ابن خلدون، عبد الرّحمن، (د.ت) **المقدّمة**، دار الكتّاب المصري، مؤسّسة شعبان للنّشر والتّوزيع.
- الدّمشقيّ، ابن كثير، (١٩٩٨م)، **تفسير القرآن العظيم**، قدّم له عبدالقادر الأرناؤوط، دار السّلام –الريّاض، الطّبعة الثّانيّة.
- الذّهبيّ، محمّد بن أحمد، (٢٠٠١م)، **سير أعلام النّبلاء**، مؤسّسة الرّسالة، الجزء٢٦.
- الرّباعيّ، عبد القادر، (١٩٩٥م)، **الصّورة الفنّيّة في النّقد الشّعريّ دراسة في النّظريّة والتّطبيق**، مكتبة الكتاني، إربد، الأردن، الطّبعة الثّانية.
- الزّبيديّ، مرتضى بن محمّد، (١٩٨٦م)، **تاج العروس**، تحقيق: عبدالفتّاح الحلو، مطبعة حكومة الكويت، ، الجزء الرّابع.
- الزبيديّ، مرتضى، (٢٠٠٧م) **تاج العروس**، دار الكتب العلميّة، بيروت، ج ١٢.
- الزّركلي، خير الدين، (د.ت) **الأعلام**، الجزء الخامس.

- زيدان، جرجي، (١٩٩٢م)، **تاريخ آداب اللغة العربيّة**، الجزء الأول، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
- أبو سويلم، أنور، (١٩٨٧م)، **المطر في الشّعر الجاهليّ**، دار عمّار، عمّان، الطّبعة الأولى.
- أبو سويلم، أنور، (١٩٨٧م)، **دراسات في الشّعر الجاهليّ**، دار الجيل، بيروت، الطّبعة الأولى.
- القرشيّ، أبو زيد، **جمهرة أشعار العرب**، دار المسيرة- بيروت، ١٩٨٣م.
- سيسيل دي لويس، (١٩٨٢م)، **الصّورة الشّعريّة**، ترجمة أحمد ناصيف الجنابيّ وآخرين، دار الرّشيد للنّشر، بغداد، العراق.
- الشّنتمريّ، يوسف الأعلم، (د.ت) **مختار الشّعر الجاهليّ**، دار الفكر الإسلاميّ الحديث.
- الصّائغ، عبد الإله، (١٩٨٧م)، **الصّورة الفنّيّة معيارًا نقديًا**، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، العراق، الطّبعة الأولى.
- صادق، محمّد، (د.ت) **خصوبة القصيدة الجاهليّة ومعانيها المتجدّدة دراسة وتحليل ونقد**، دار إحياء الكتب العربيّة، الطّبعة الثّانية.
- الصّغير، محمّد حسين، (د.ت) **نظريّة النّقد العربيّ رؤية قرآنيّة معاصرة**، دار المؤرّخ العربيّ، بيروت، لبنان.
- الصّفدي، صلاح الدّين، (٢٠٠٠م)، **الوافي بالوفيات**، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التّراث، بيروت.

- الياسين، إبراهيم منصور، **شعر ابن درّاج القسطليّ، دراسة وتحليل**، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك ١٩٩٧م.
- ضيف، شوقي، (د.ت) **العصر الجاهليّ**، الطّبعة السّابعة، دار المعارف بمصر.
- عبّاس، فضل حسن، (٢٠٠٥م)، **البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع**، دار الفرقان للنّشر والتّوزيع، الطّبعة العاشرة.
- عبد الرّحمن، نصرت، (١٩٨٢م)، **الصّورة الفنّيّة في الشّعر الجاهليّ في ضوء النّقد الحديث**، مكتبة الأقصى، عمّان، الأردن.
- عصفور، جابر، (١٩٧٤م)، **الصّورة الفنّيّة في التّراث النّقديّ والبلاغة**، دار الثّقافة للصّياغة والنّشر، القاهرة، الطّبعة الثّالثة.
- غزوان، عناد، (٢٠٠٦م)، **دراسات في الشّعر الجاهليّ**، دار مجدلاويّ للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى.
- فروخ، عمر، (د.ت) **تاريخ الأدب العربيّ، الجزء الأوّل، الأدب القديم من مطلع الجاهليّة إلى سقوط الدّولة الأمويّة**، دار العلم للملايين.
- فهمي، حسين، (د.ت) **قضايا الأدب والنّقد رؤية عربيّة وقفة خليجيّة**، دار الثّقافة، قطر.
- القزوينيّ، الخطيب، (د.ت) **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق: محمّد عبد المنعم خفاجيّ، الطّبعة الرّابعة، دار الكتاب اللبناني.
- ماري، جان، (١٩٦٥م)، **مسائل فلسفة الفنّ**، ترجمة سامي الدروبيّ، الطّبعة الثّانية، دمشق.
- مراد، يوسف، (١٩٧٨م)، **مبادئ علم النّفس**، دار المعارف، القاهرة.

- ابن المعتزّ، عبد الله، (١٩٩٠م)، **البديع**، تحقيق: محمّد فؤاد ، دار الجيل، بيروت.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم، (١٣٠٠هـ)، **لسان العرب** ، تحقيق: أحمد فارس، دار صادر، بيروت، الطّبعة الأولى.
- نافع، عبد الفتّاح، (١٩٨٣م)، **الصّورة في شعر بشّار بن برد**، دار الفكر للنّشر والتّوزيع، عمّان.
- هلال، محمّد غنيمي، (١٩٧٣م)، **النّقد الأدبيّ الحديث**، دار الثّقافة، بيروت، لبنان.

المجلات والدّوريات

- الرّفوع، خليل، (٢٠٠٦م) صورة الحرب في الشّعر الجاهليّ، **مجلّة جامعة قطر للآداب**، العدد (٢٨).
- الرّفوع، خليل، (٢٠٠٦م) صورة السّحب في الشّعر الجاهليّ، **المجلّة الأردنيّة في اللغة العربية وآدابها**، المجلّد (٢) العدد (٣) جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ/ تموز.
- الرّفوع، خليل، (٢٠٠٧م) المنيّة في الشّعر الجاهليّ، **المجلّة الأردنيّة في اللغة العربيّة وآدابها**، المجلّد (٣) العدد (٣) جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ/ تموز.
- زيتونيّ، عبدالغنيّ، (١٩٩٩م) الكعبة المشرّفة في الشّعر الجاهليّ، **مجلّة مجمع اللغة العربيّة الأردني**، العدد ٥٦ السّنة الثّالثة والعشرون، كانون الثّاني – حزيران.
- منصور، حمديّ وأحمد زهير رحاحلة، (٢٠٠٩م) ملامح الطّيف في الشّعر الجاهليّ، **مجلّة مجمع اللغة العربيّة الأردنيّ**، العدد ٧٦، السّنة الثّالثة والثّلاثون، كانون الثّاني – حزيران.



عبدالله أحمد عيال عوّاد

دراسات

الصّورة الفنيَّة في شعر قيس بن الخطيم



لوحة الغلاف للفنان
محمود طه / الأردن